241

الرجل العائط

http://www.maktbtna2211.com/

Ahmed Mady

قماشة العليان

مجموعة قصصية

Thurs.
14/6/2012
Riyadh

الرجل الحائط

قماشة العليان

وانتقلنا أنا وأمي وأختي من دار جدي إلى بيت يضمنا والرجل الغريب .. نفرت منه منذ أول يوم رأيته فيه .. لم أرى صورة الأب التي عايشتها مرارا في أحلامي .. ولم أشعر معه بالحنان الذي أتوق إليه ..ولا حتى بالأمان.. ومرت الأعوام وأنا أحاول مستميتة أن أتأقلم مع هذا الوضع، أن أرى في هذا الرجل الغريب أبي الذي فقدته ،والحياة الكاملة التي أتمناها ، ولكن تلاشت كل أحلامي ذات يوم حين رأيت هذا الرجل يلاطف شقيقتي .. واستمر هذا الأمر ..فتعدى حدوده وبدأ يطاردها في كل مكان تلجأ إليه ..أشفقت على شقيقتي وعلى وحدتها وضياعها .. نهضت على بكائها ذات ليلة ..فأخذتها بين أحضاني لتبلل دموعها خدي ..ويرتفع نشيجها ويشق صدري ..

20
مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE

ISPN 6038-000-34-2
9786038000342
دار الكفاح للنشر و التوزيع
AL - KIFAH PUBLISHING HOUSE

WWW.MAKTBTNA2211.COM

أسوأ النساء في التاريخ

كتابنا القادم

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

سلمى مجدي

WWW.MAKTBTNA2H.COM

الرجل الحائط

مجموعة قصصية

الطبعة الثالثة
١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م

قماشة العليان

Email: komasha@yahoo.com

أغنية الصباح

أغنية الصباح

دماء أم دموع تلك التي تسيل من عيني بلا حساب؟

آهة تلو الآهة تقتات من قلبي وأحشائي.. تسير عبر الوتين إلى حيث الألم والأنين، ثم تسقط نبضات وأسى فأجهل منبعها، المقلة أم الوريد..

تجربة تلك التي عشتها أم حياة بكل أبعادها ومآسيها.. بغتة وجدته في عالمي يدور بدوران شمسي، ويلتمع بنجومها ويلون سماءها بلون الغيوم.. كيف جاء.. كيف اقتحم.. كيف تغلغل في ذاتي؟.

أنا لا أدري.. عاصفة من النساء كنت اهب هبوبها وأتحول اعصارا ثم اكتسح كل مافي طريقي من بشر أو شجر أو رماد.. تحولت عاصفتي إلى امطار اعتصرها كياني ودموعاً حرى اذابتني..

ثم سكون وسكون.. فقط حينما امتلأت أجوائي به واستحال فيضان بركاني إلى ترف لا أدعيه.. كيف يتحول الجسد إلى قلب ينبض بكل هذا الجنون؟

كيف يتلاشى الماضي والحاضر والمستقبل بنظرة تسكن العيون؟ كيف تتحول الدنيا إلى واحة وارفة الخضرة تترقرق بين جنباتها المياه العذبة والحنان من نبرة الصوت؟

تساءلت يومها ولم اكن لأتساءل أبدا، هل وقوعنا في الحب حدث لتصادف مروره في حياتنا بفترة كنا فيها دون مناعة عاطفية لأننا خارجون تواً من وعكة ولا علاقة له بمن نحب؟.

همس لي ذات يوم: أنني أتسول حبك.. وأشعر بك كمن تتصدقين به علي.. أجبته بصوت مثقل بالخيبات: هل تدرك معنى حب بلا ماض ولا حاضر ولا مستقبل، أنه ليس سوى موت آخر.. أسعى إليه كفراشة تسير

بمحاذاة اللهب، فلا لون النار أغراها بالاقتراب ولا حرارته أرغمتها على الابتعاد.. وأمضي بذاكرة من ورق أسأل أمي بلا مبالاة مصطنعة:

- أمي.. صديقتي اللبنانية تطلبني لشقيقها.

وبضحكة موجعة:

- أمي هل ممكن في يوم ما أن أتزوج لبنانيا؟!

نظرتها تخترقني وكأنها تنفذ إلى أعماقي بثبات مخيف، ثم تشيح بوجهها دون جواب.. كنت أظن المستحيلات ثلاثة قبل أن تدركني نظرة أمي برابعها..

أعود إليه بقلب متعدد الانكسارات.. موزع الاضاءة.. متداخل.. متشابك كهرم زجاجي تحطم على صخرة الواقع.

- أنا أحبك.. سأموت لو فقدتك.. أخاف اليوم الذي أودعك فيه يجب أن أبقى في البلد لأجلك.

- إن سفرك هو الحل.. وفراقنا هو الأمل..

ويضيع صدى صوتي وسط متاهات الأحزان.. لماذا أحببته.. هو.. هو دون سائر الخلق.. كيف أصبح ركيزة في حياتي دون أن أدري؟.. كيف أصبح لكلماته طعم الماء والهواء.. لمَ امتلأت به دنياي وكأنها كانت قبله فراغاً كبيراً موحشاً.. لمَ أصبح نهاري حلماً وليلي دموعاً وصمت هاتفي انهيارا؟.. أسئلة ترتدي الصمت وتبتلع مساحات شاسعة من الأمل..

- أتمنى أن اخطفك وأهرب إلى بلاد بعيدة.. لن أتركك وسأحارب لأجلك لأبقى إلى جوارك.

يأتيه صوتي ضعيفاً متهافتاً وأنا أترنم ببيت شعر..

- يا حبيبي كل شيء بقضاء ما بأيدينا خلقنا تعساء

ويموت صوتي.. يتلاشى داخل أضلعي، وقد تشابكت خيوط المأساة في ذاتي.. ان من قال: "لا يأس مع الحياة؛ كاذب ومدعٍ.. انه لم يعش حبا كحبي ولم يعانق المستحيل مثلي ولم يعتصره الألمً بمرور الأيام كما اعتصرني لأنها تذكرني بأفول حبي ونهايته..

في لحظة جنون أو ربما تعقل قالها لأبي: أريد الزواج.

لم اسمع ما قاله أبي عن الاستغلال والاستغفال والتطاول.. ينتحب الهاتف جواري بعويل متقطع ثم صمت.. لم أسمع صوته بعد ذلك.. شرعية الحب قتلته.. وهل الحب إلا ارتياب ومولود يكره الظهور؟

الأضواء كانت ضدنا كما كان كل البشر.. الأضواء أيقظتني من أحلامي المستحيلة وأعادتني فتاة بائسة تنتظر قدرها المحتوم.

وكان قدري دون ذنب اقترفته زوجا يرتدي الأقنعة ويجيد التلون كحرباء.. وجه للصباح ووجه للظهر وآخر للمساء والسهرة...

مات الأمل داخلي وتدافعت جيوش الحرمان.. ومضيت أجتر حبا كالموت لا يأتي في العمر سوى مرة واحدة.

لن أنساك حتى الأبد.. ولا أنا..

أقبل الليل وناداني حنيني.. وسرت ذكراك طيفاً هام في بحر ظنوني.. ينثر الماضي ظلالا.. كن أنسا وجمالا.

أيتها الأغنية التي يرددها المذياع هذا الصباح.. كفي عن تعذيبي!!!

«تمت»

كفى يا ضميري

وقفت أمام الطبيبة ارتجف وكل عِرق في جسدي ينبض بجنون وكأني أطلب منها اعادة ما قالته قبل لحظات، إعادة ذكر الحقيقة بكل قوتها ومرارتها وعذابها.. وكأنما استجابت لطلبي، قالت بشفقة بعد أن نقّرت على طاولتها بظفرها الملون:

تماسكي أرجوك، فالموقف يتطلب منك الهدوء والسكينة.. المرض اللعين قد تمكن من صدرك كما أخبرتك ولابد من الاستئصال..

بكت أمي وصرخت اختي وبقيت واقفة أحدق فيمن حولي بذهول، وقد جاش في صدري احساس غريب لم أحسه من قبل وان الدنيا قد أظلمت فجأة وأقفرت من سكانها ولم يبق سواي، وذلك المرض الخبيث.. لم أنم تلك الليلة ولا في الليالي التي تلتها تعلقت عيناي بسقف الحجرة أمامي وآلاف من الأسئلة تخترق رأسي بضجيج مؤلم.. لماذا وكيف ومتى.. وقد كنت حتى الأمس فقط في أتم صحة وعافية ولم يسبق أن شكوت من أي مرض.. وسعد.. حبيب الطفولة ورفيق العمر.. خطيبي الآني وزوجي المقبل كيف سيتقبل هذه الحقيقة وبأي صدر رحب سيواجهها؟ وقد كنت في نظره الوردة اليانعة المتدفقة حبا وحيوية وعطاءً.. كيف سيقبلني نصف امرأة بنصف صدر؟. وقلب مثقل بهموم المعاناة والمرض وشبح الموت يخيم على عش حبنا الذي لم يبدأ بعد.. رباه.. ماذا أفعل وكيف اصارحه بالحقيقة المفجعة التي ستقتله قبل ان يخترق نصلها المسموم صدري المريض.. أجهشت بالبكاء وقد أوصلتني أفكاري إلى طريق مسدود لا مهرب منه ولا تجاوز.. ومن بين دموعي لمحت أمي تربت على كتفي بحنان وهي تقول بصوت فضحته رنّاته

الباكية:

- هل توصلت إلى قرار ياليلى.. هل توافقين على عملية الاستئصال؟.

اجبتها وعيناي مغرورقتان بالدموع:

- لا أدري.. أنا لم أتزوج بعد.. وسعد.. أنه...

واغتالت غصة ألم عميقة بقية كلماتي.. ضمتني أمي بحرارة وقالت:

المهم شفاؤكِ يا حبيبتي وانقاذ حياتك.. لا يهم استئصال يد أو ثدي أو ساق.. المهم الشفاء ومن يحبك سيقبلك كما أنتِ لا كما كنت..

أيدتها وفي قلبي خوف.. خوف عميق من أن يتخلى عني سعد أو يتخاذل أو يتجاهل، فما بقى في نفسي ذرة هدوء تحتمل أي شيء من هذا..

وقررت في لحظة صفاء نادر.. أن أتخلى عن سعد.. أن استأصل حبي قبل أن استأصل جزءاً من جسدي.. أن أتركه قبل ان يتركني.. قبل أن اعاني مذلة السؤال وقسوة الهجران.. قبل أن أرى في عينيه الصدود والتجاهل أو نظرة أشفاق تحطم كبريائي وتعجل من نهايتي.. كفى يا قلبي.. كفى يا ضميري.. لن أنتظر منه كلمة قد تنسف حباً بنيت عليه عمري كله وأملي كله.. لن أعذبه بعذابي وأمتحن صبره بمرضي.. سأودعه بهدوء سيحزن قليلاً ويتألم كثيراً لأبكي أنا بصمت وعذاب.. وتمر الأيام وتندمل الجراح ويصادف حباً آخر وينساني وكأنني لم أكن.. ولن أنساه ما حييت..

كانت هذه خطتي.. رغم آلامي وعذابي بدأت في انتهاجها، حددت مع المستشفى موعداً لإجراء العملية وبدأت اتهرب من سعد.. أتهرب من لقائه ومن مكالماته.. وفي يوم استجمعت شجاعتي وقررت مواجهته.. حادثني عبر الهاتف.. قلت له بهدوء يغلف اضطراب نفسي وغليانها:

ـ سعد أرجوك.. انسحب من حياتي.. أنساني..

أحسست باضطراب أنفاسه وكأنه لا يصدق هذا الهراء تكلم اخيراً بصوت تمزقه اللوعة:

- ليلى ماذا حدث.. هل جننتِ؟.

أجبته بصوت حاولت جاهدة ألا يبدو فيه رنة بكاء:

- أنا في كامل عقلي يا سعد.. الحقيقة أنا لا احبك ولم احبك يوما.. لقد كنت أتلاعب بعواطفك.. خنقتني العبرات.. صمت هو لكنه لم يستطع ان يكتم شهقة ألم اخترقتني اختراقا لتفتت صدري المريض.. تمالك نفسه قبل أن يسأل:

- هل هناك آخر؟

أجبته:

نعم.. وأرجو ان تصادف إنسانة تفهمك وتحبك.. مثل الذي صادفته أنا..

وسالت دموعي على سماعة الهاتف، ولم أستطع التحدث أكثر من ذلك.. واحسست بدموعه تسيل على الطرف الآخر وأنا اسمع تنهداته الباكية.. قال اخيرا وهو يستجمع شتات نفسه:

- أنت حقيرة خائنة.. أنا اكرهك..

وأغلقت سماعة الهاتف لابكي بجنون وأنا أمزق كل شيء بأظافري.. شعري وثيابي ودفاتري.. لم يبق شيء مهم بعد سعد.. لم يعد لأي شيء طعم بعد أن فقدت الحب والسعادة والأمان.. واستشعرت قسوة الموقف وفداحة التضحية عندها احسست فجأة بأن الحياة كئيبة لا طعم لها ولا لون.. وان الأشياء من حولي ترتدي ثياب الحداد.. فلا أمل في حاضر ولا مستقبل.. المرض ينهش جسدي وحبي الوحيد تركته بارادتي ودون أية

ضغوط..

وغابت شمس حياتي وأنا اتجرع العذاب اضعافا مضاعفة حتى هال أمي ما تراه علي من وجوم وضعف شديدين، وسألتني بقلق:

- ما بك يا حبيبتي.. هل تفتقدين سعداً؟

وانهرت بين ذراعيها فاقدة الوعي ولم أفق إلا وأنا في المستشفى، وقد أجريت لي العملية الجراحية.. نظرت إلى ثوب المستشفى الأبيض وهو ينكمش حول الصدر ويبدو فارغا مخيفا كالقبر.. رفعت عينيّ إلى الطبيبة بتساؤل مر.. قالت وابتسامة حزينة تبدو على محياها:

- حمدا لله على سلامتك.. لقد اضطررنا إلى استئصال الثدي الآخر أيضاً للحفاظ على حياتك.. ولن يعود إليك المرض الخبيث أبدا بإذن اللّه..

أجهشت بالبكاء على الرغم مني ولم تفلح كلمات الطبيبة المواسية في ازاحة جبال الهموم التي تراكمت على رأسي.. حتى حنان أمي وحنوها عليّ لم يغيرا شيئاً من نظرتي القاتمة تجاه ذاتي.. فتاة تخطو خطواتها الواسعة نحو الشيخوخة بلا علامات تميز الأنثى عن الذكر، وبلا حتى بارقة من أمل.. و"سعد" الحب الضارب في أعماقي حد الوجع يختفي من حياتي بلا وداع وكلماته الأخيرة لا تزال ترن في أذني كمطرقة من حديد.. خرجت من المستشفى لاتقوقع حول ذاتي وكل شيء في حياتي يتداعى ويتحطم وينتهي للأبد حتى أشيائي الصغيرة وكحلي ومرآتي هجرتها وكأنها لم تكن..

وفي قمة يأسي وعذابي فوجئت به إلى جواري.. حبيبي الأبدي سعد.. ذهلت.. شملني اضطراب شديد من قمة رأسي حتى أخمص قدمي أعجزني حتى عن النطق.. حاولت الهرب وأنا أنظر إلى صدري

الخاوي بفزع.. جاءني صوته العذب مغلفاً باللهفة والحنان:

- ليلى أنا أحبك كما أنتِ.. أنت قاسية حين أبعدتني عنكِ بسبب المرض، ولكن ثقي ثقة أكيدة بأنه لن يفرقنا سوى الموت..

امتلأت عيناي بالدموع وأنا أشير إلى الواقع البشع المتمثل في صدري.. أبتسم برقة وهو يقول:

- سنجري عملية تجميل تعيد كل شيء إلى وضعه الطبيعي.. ستكونين زوجتي وأم أولادي ياليلى.

تسللت كلماته الرقيقة إلى قلبي محملة بالأمل الطاغي.. ابتسمت رغم دموعي وأنا أقول بصراحة جارحة:

- ومن أين يشرب أولادنا الحليب؟

ضحك بقوة وهو يجيب:

لن نعدم بقرة ترضعهم..

«تمت»

..وأضاعني أخي

..وأضاعني أخي

في السابعة عشرة من عمري كنت.. حينما تصدع العالم من حولي.. انهارت الجدران التي تحوطني وتمزقت الأقنعة عن وجوه من حولي لتبرز لي الأنياب والمخالب.. والأرض الخربة المتهاوية والاشجار العارية والأيدي الخاوية والأنفس الممتلئة بالصديد..

في بداية تفتحي للحياة كنت، اخطو خطواتي الأولى في عالم الأنوثة الصاخب بالجاذبية والغموض كما يتراءى لي..

بيد أن سرمدية الواقع اغتالت الحقيقة الجاثمة أمام عيني كواقع مرعب.. ماتت أمي.. نعم ماتت من تمثل لي نبع الحنان وروضة الجنان وشاطئ الأمان..

انتزعها مني القدر في يوم ممطر كئيب.. في ذلك اليوم البعيد كنت أقف في ردهة المستشفى تتقاذفني أمواج الأمل والألم، تحلق بي الأحلام وتصفعني الأوهام.. فالعملية ليست سهلة.. انسداد في أحد شرايين القلب، وأمي بقلبها الضعيف لن تتحمل العملية.. هكذا أوحى لي حدسي.. لترد عليه عاطفتي اللطمة بأن أمي كانت ولا تزال تتحمل كل شيء ولن يضيرها أية عملية تجرى في جسدها..

لاح لي وجهها المنهك قبل العملية بلحظات.. أمسكت بيدي في قوة عجيبة.. امتلأت عيناي بالدموع.. ابتسمت بوداعة وهي تهمس:

- لم اعهدك هكذا يا نجلاء.. أنت قوية وستبقين قوية دائماً سواء بوجودي أو بعدمه.. هطلت دموعي بغزارة وأنا اهتف:

لا يا أمي.. لن افقدك.. ستخرجين سالمة بإذن الله وسنعيش بسعادة كما كنا دائماً.. سرت البرودة من جسدها إلى جسدي عبر أناملها

النحيلة المعروقة.. تنهدت وهي تقول:

- الأمل بالله كبير.. ولكن لاتبكي يا نجلاء يا حبيبتي.. عديني ألاّ تبكي.. لا أحب أن أرى دموعك.. أريد أن أرى ابتسامتك كأخر شيء تقع عليه عيناي قبل الدخول إلى حجرة العمليات.. هيا ابتسمي يا حبيبتي..

اغتصبت ابتسامة شقت طريقها وسط الدموع.. ألفيت نفسي لا أزال ابتسم رغم مرور وقت طويل على دخول أمي حجرة العمليات..

عادت الشكوك تتناهبني حينما قال لي أخي الاكبر:

- نجلاء.. ألن تجلسي؟

أشحت ببصري عنه غير قادرة حتى على ترف الرد على سؤاله..

أقبل الطبيب متثاقلاً.. نبض قلبي بسرعة جنونية.. قال بصوت معدني بارد وعيناه الزائغتان تنتقلان بيننا:

- البقية في حياتكم.. الوالدة في رحاب الله!!

لم يستجب قلبها الضعيف للتنبيه المتواصل.و.و.. ولم أع وجودي..صحوت على واقع بشع منفر يخلو من وجه أمي الحبيب.. لم أصدق انها غادرتنا إلى غير رجعة.. حتى عندما أعاد المستشفى حاجياتها البسيطة.. عباءة سوداء، سوارين ذهبيين وخاتما ذا فص أزرق أهديته لها عندما استلمت أولى مكافآتي من الجامعة.. وحذاء اسود بسيطاً كانت قد استعارته مني.. لا.. لا اصدق.. ولن اصدق.. تحجرت عيناي بغير دموع.. وانساب نزيف الداخل بلا حساب.. رفضت الاكل والشرب والنوم.. بقيت كتمثال بارد في حجرة أمي العتيقة احتضن كل شيء بعيني يغمرني شعور جارف بأنني لن أراها مرة أخرى.

وحدث ما كنت أخشاه، انتزعني أخي من بين اشيائي المحببة ووضعني في حجرة بمنزله بعد أن دفن ذكرياتي وأمي بإعلان بيع منزلنا..

لم يكن لي حق الاعتراض بعد أن تعرضت على يد زوجته إلى شتى أصناف الاهانة والاذلال.. وبعد أيام -لا أدري كم عددها- اقتحم أخي حجرتي كعاصفة هوجاء.. قالها بلا مقدمات:

- ستتزوجين الأسبوع القادم..

بقلة حيلة تساءلت:

- والجامعة!؟.

اجاب بخشونة تعمدها:

- ليست ضرورية... الزواج أهم..

ولم أسأل من هو.. وماذا يعمل.. ولا كيف تبدو هيئته.. استسلمت تماماً لأخي وجبروته وطغيانه.. ليس خوفا منه بل طمعا في الهروب، الهروب من قبضته إلى أي مكان، وأي أرض، وتحت أي سماء..

ولم يكن زوجي المقبل بأفضل من أخي.. فقد عاملني منذ البداية على انني سلعة.. سلعة اشتراها ليكمل بها ديكور منزله تماما كقطعة سجاد أو آنية فخارية أو لوحة تاريخية..

حاولت التقرب منه بشتى الطرق، ولكنه كان في واد وأنا في واد آخر.. حاولت اجتياز المسافات التي وضعها باختياره، ولكن محاولاتي كلها ذهبت ادراج الرياح..

واكتشفت متأخرة اسباب صدوده عني.. عرفت سبب تجافيه لي وكأنني لم أكن..

هناك حب قديم في حياته.. احب ابنة عمه بعمق، ولكنها رفضته وتزوجت بآخر.. وبقى يحبها ويلعق جراحه باستمرار.. لم أواجهه بما عرفت، واكتفيت بمراقبته في صمت وكأنني اراقب شخصا مريضا..

لم يفرح حينما علم بأمر حملي ولم يساوره ادنى شعور بأية سعادة..

فقط قال لي بفتور:

- أتمنى ان يكون القادم ولدا يحمل اسمي..

نكست رأسي بيأس وأنا امضغ تعبي وقلقي واحباطي.. حتى أذن الله لي بالولادة، فأنجبت طفلة جميلة، ما أن علم بأمر ولادتها حتى قاطعني ولم يزرني بالمستشفى ولا حتى تلقيت منه مكالمة هاتفية..

شقيقي الاكبر كان أشد منه ظلما وجورا، فقد رفضت زوجته رعايتي بعد الولادة.. فأخرجني من المستشفى إلى بيت زوجي الذي لا يريد أن يراني.. فأي اهانة واذلال أكثر من هذا؟..

انزويت في ركن من اركان بيتي أنا وابنتي ابتلع دموعي في صمت تتراءى لي صورة والدتي بحنانها وحبها ورقتها

لماذا ترحل وأنا في قمة احتياجي لها؟.. وتضيع تساؤلاتي وسط دوامة الحياة ليفاجئني زوجي بالطلاق.. فوجئت في البداية وتلاشت دهشتي لتلوح لي تباشير الحقيقة المؤلمة.. فزوجي لم يحبني منذ البداية وانما تزوجني لمجرد انه يريد ان يتزوج.

وهكذا عدت لبيت أخي مطلقة، ولم تمض سنة على زواجي.. وبين ذراعي طفلة لا ذنب لها في شيء على الاطلاق.. لم يشعر أخي بأي تأنيب ضمير وهو يرى دموعي تنساب على خدي بحرارة.. اكتفي بنظرة زاجرة وزوجته تقول بشماتة:

- انها لا تصلح ولن تصلح لأن تكون زوجة ناجحة.. لقد افسدتها أمك بتدليلها.. ولا أجرؤ على النطق حتى وهي تأتي بسيرة أمي -رحمها الله- دون لفظ رحمة.. ابتلع غيظي واصمت..

ولم يطل انتظاري كثيرا.. فقد جاءني أخي والتردد يسبق خطواته.. نبض قلبي بجنون.. وقد استشعرت مقدما الخطر الآتي:

قال لي بحسم

- ستتزوجين بعد شهر من رجل ناضج يقدرك حق قدرك..

همست وكياني كله يرتجف:

- وابنتي؟

وضاعت صرخاتي وسط اصرار أخي وزوجته على تحطيمي..

ألقى أخي بكل أسلحته أمام رنين النقود والثروة المرتقبة من الرجل العجوز الذي سيبيعني له.. رجوته أن يبقى معي ابنتي خاصة أن والدها رفض الصرف عليها.. تردد.. هددته بأنني لن أتزوج إلا ومعي ابنتي..

وانا الآن زوجة لرجل تخطى الكهولة بسنوات في بيت مترامي الأطراف، بارد كالصقيع الذي يسكنني.. لاحب.. لا مودة ولا رحمة تربطني بزوجي.. كل الذي بيننا هي ابنتي.. فهو لسوء حظه وحسن حظي عاش طوال عمره يعاني من العقم، فكانت ابنتي وكأنها هدية من السماء بالنسبة له..

وانا اعيش وأرى.. وأنام.. وأخي ؟؟

سامح الله أخي...

«تمت»

الموت الجديد

الموت الجديد

جفاف في حلقي.. صعوبة في الابتلاع.. وسعال شديد لدرجة أنني أشعر بقلبي يكاد يخرج من فمي، وأتقيأه كما تقيأت سابقا كل أنواع المهانة والاذلال.

دكتورة هل....؟ تقاطعني وهي تتهيأ لكتابة الوصفة.. لاشيء ذا بال.. التهاب بسيط في الحنجرة.. قرص كل ثماني ساعات ومحلول للغرغرة و.. وتاهت نظراتي عن المكان وأحسست بما يشبه الغيبوبة وأنا أتأمل داخلي بصمت.. ترى أليس لهذا العذاب نهاية؟ ألن يقف عن التدفق هذا السيل الجارف من الهوان والانكسار؟ أطفالي فقدتهم الواحد تلو الأخر، أحمل به في بطني تسعة أشهر أطعمه من ذاتي، ترعاه خطواتي الواهنة، أترقبه يوما بعد يوم، ساعة بساعة، صور الأطفال في الصحف والمجلات تغذي خيالي عن طفلي القادم، ملامحه، ابتسامته، لكن كل شيء يذهب ادراج الرياح ولا اقبض سوى السراب.. فبعد أيام من ولادتي.. سبعة أيام على وجه الدقة والمولود في كامل الصحة والحيوية يبكي فجأة.. ثم يرتفع صوت بكائه.. ويزداد.. ويزداد.. ويتعاظم حتى يطغى على أي صوت عداه، أفشل وزوجي في تهدئته.. دقائق.. ساعات.. ثم يذوي ويفقد الوعي ويموت.. نعم هكذا فجأة.. هذا هو السيناريو المحكم التدبير الذي رافقني على مدى أربع ولادات متتالية.. سوى تغير طفيف في آخر ولادة.. إذ ما أن بدأ المولود صراخه على ذلك النحو المخيف وقلبي تعلو دقاته ولساني يكرر آيات قرآنية معينة حتى خرج زوجي عن صمته وصرخ بقوة.. بقوة شديدة لأسمعه.. أنت طالق.. وخرج وتركني مع أربعة جدران صامتة تسخر مني.. ومولود يموت أمام عيني بلا سبب..

مـلابس الطفل تملأ الادراج، واثمن انواع الالعـاب وقناني الحليب، لكن لمن؟ هل اعطي العـذر لزوجي.. فـرغم كل مـا بذلناه من طواف على المستشفيات والتحاليل والفحوصات والأدوية لم نصل إلى نتيجة بل ذات النهاية الموجعة بكل تفاصيلها المؤلمة الحزينة.. هل أراد أن يهرب من هذه المأساة، أم أراد الاختباء عن أعين الناس وألسنتهم وفضولهم الذي لا ينتهي، أم انصاع اخيرا لآراء أمه وأخواته اللائي لم يتورعن عن اتهامي بأنني المتسببة بكل ذلك؟.

السعال يعاودني بقوة.. أضع المنديل على فمي وأنفي لافاجأ ببقع من الدم الأحمر القاني تلونه.. تلمحه الطبيبة ثم تسحبه مني بحذر لتحولني إلى قسم الأشعة.. لم أجزع أو اقلق وأنا أرى الأمور تتعاظم من حولي.. الطبيبة وهي تهرول لرئيس القسم، ثم اجتماع للاطباء واعادة الفحص مرة أخرى.. مع انهمار سيل من الأسئلة على رأسي.. سبحان الله.. لم يعد أي شيء يثير خوفي أو يهز سكينتي واطمئناني.. فماذا سيحدث لي أكثر مما حدث.. ماذا سيرعبني أكثر مما أرعبني صراخ اطفالي في نفس اليوم والساعة وهم يموتون بلا سبب وبلا خيار.. ماذا سيرعبني أكثر من تخلي زوجي عني ونبذه لكل اللحظات السعيدة من أجل أمر لا ذنب لي فيه.. لقد تساوت الأمور في نظري وغدا كل شيء لا يساوي شيئاً.. حتى زواج زوجي بأخرى وحملها منه لم يشعراني بأكثر من وخزة ألم في قلبي ثم تلاشى كل شيء..

بعد مقدمة طويلة عن الإيمان بالله والصبر على الشدائد وانتظار الفرج همس لي كبير الاطباء بحقيقة مرضي الخبيث في الرئة وأنني لن أنجو غالبا.

لم أحزن.. ولم أبك.. فقط تنهدت بقوة وأنا اوكل لله أمري.. بعدها

بأيام فقط وقد استعادت الحياة دورتها مني اخبروني بانجاب زوجي لطفل ذكر فرح به فرحة عظيمة ثم دعتني شقيقات زوجي لحضور "اسبوع" الطفل الجديد لاغاظتي وقهري.. رغم ألمي ومرضي وعذابي لاحت أمام عيني تفاصيل حياتي السابقة مع زوجي.. انه لم يغضبني يوما ولم يقهرني وحاول جهده اسعادي.. لكن ما حدث كان فوق طاقة أي إنسان على الاحتمال.

حملت هديتي وذهبت.. نظرات الجميع توحي بالشفقة المرة والشماتة المبطنة بأسى.. ابتلعت احزاني داخلي وأنا أرى المولود.. لحظات ثم بكى الصغير.. علا صوته أكثر.. نبضات قلبي تتسارع بجنون.. صور من الماضي القريب تختلط بالمرئيات أمامي.. صرخ أكثر وأكثر.. فشل الجميع في تهدئته.. ألم شديد في صدري والمأساة تتجسم في ناظري مخيفة بشعة قاسية.. غادرت المكان ولأول مرة منذ سنوات خلت.. بكيت بمرارة.

«تمت»

جسد بلا أنوثة..

جسد بلا أنوثة

في سنواتي الأولى المبكرة.. عرفت حقيقتي.. عرفتها من دموع أمي الدائمة.. ومن حنان أبي الزائد لي دون بقية إخوتي.. عرفتها من مرآتي.. من منظري الهزيل وشفتي الزرقاوين وعيني الذابلتين.. عرفتها من كلمات الأطباء المواسية ومن نظرات الأقارب المشفقة.. كانت التعليمات من حولي واضحة.. جادة.. صريحة.. لا تلعبي مع الأطفال.. لا تضحكي كثيراً ولا تحزني كثيراً.. لا تنفعلي ابدا..

لم اكن بحاجة لأن يصارحني أحد بأنني مريضة.. وبأقسى مرض تواجهه طفلة تخطو خطواتها الأولى على سلم الحياة.. إنه مرض القلب.. الذي امتص طفولتي وشبابي وحياتي.. لا أتحرك إلا بحساب.. ولا آكل إلا بموعد.. ولا أنام إلا بدواء..

كان كل شيء في حياتي ضبابيا على نحو لم استطع له تفسيرا.. حتى أفقت لنفسي على أعتاب الأنوثة.. رغم الالحاح الصارخ في أعماقي، فلم أكن أرى أثرا له على جسدي.. لا لمعان في العيون.. ولا صدر ناهد.. ولا استدارة في الجسد.. ولا دماء تسري في الوجنتين كشقيقتي أمل التي تصغرني بعام واحد فقط.. أعيد النظر في المرآة.. فيصدمني وجهي الأصفر بعينيه الجاحظتين.. وجسد ضامر هزيل، لا يصلح حتى كهيكل في التجارب الطبية.. ورغم هذا أحببت.. نعم أنا الفتاة المريضة الهزيلة الشاحبة أحب..

كان ابن عمي فيصل هو أول حب يتفتح له قلبي وعقلي وكل جوارحي.. كان حبي له قويا آسرا ومحطما.. كنت أراه وهو يتردد على أخي يوميا.. وأراه وهو يحادثني طالباً اخي.. وأراه حين أغمض عيني

لأنام..

كنت أعرف أن حبي له مستحيل وان زواجي منه أكثر استحالة.. ولكن قلبي العنيد بنبضاته المجنونة يأبى إلا الهتاف له في كل مرة أراه فيها أو أسمع صوته..

وفي ليلة فاض بها حبي عن حده، قررت أن أصارحه بكل شيء وليحدث مايحدث.. أمسكت سماعة الهاتف بأصابع مرتجفة.. جاءني صوته الدافئ لينتشلني من غيبوبة أحلامي إلى واقع مر لا حلاوة فيه..

تسارعت دقات قلبي المريض وأنا أهتف بقوة كيلا تخونني شجاعتي:

- فيصل.. أنا أحبك..

شهقة مفاجئة تلاها صمت رهيب.. وكأنه لم يتوقع.. لم يظن بأن أكون على هذه الشاكلة.. أحسست بوقع المفاجأة الكبير عليه.. رأيته بعين خيالي، ممتقع الوجه.. زائغ البصر.. وكأنه لم يحسب هذه الفتاة الصفراء الناحلة المريضة تمتلك هذه الجرأة النادرة التي تحسدها عليها المحترفات..

مرت الثواني بطيئة مملة.. وقلبي يخفق.. وكل عرق في جسدي ينبض.. انتظر الرد المستحيل، وقد أدركت خطورة ما فعلت.. فمهما كنت، ومهما كان، فأنا فتاة شرقية أولا وأخيرا.. وهو ابن عمي الشاب المتعصب الذي يمنع شقيقته من الذهاب إلى الأسواق إلا بصحبته..

ندمت.. ولكن بعد فوات الأوان، وبعد أن أغلق سماعة الهاتف في وجهي دون أي جواب.. انهرت في بكاء مرير، ومأساتي تجسم كل شيء في نظري.. ودموعي تسخر مني.. إلى هذا الحد هانت على نفسي؟.. أين كرامتي.. أين ترفعي وكبريائي؟..

وغيبني المرض في دهاليز طويلة مظلمة.. لأفيق بنفسي وأنا في

مستشفى.. الإبر الطبية تخترق لحمي، وأجهزة وأسلاك كهربائية تحيط بجسدي العليل، وكأنها تعتصره عصرا.. وأنفاسي حارقة وقلبي ضعيف.. ودموع جافة لا تزال عالقة بأهدابي..

قال لي الطبيب وهو يبتسم:

- ألم احذرك من الانفعال؟

صمت وأنا انتحب.. ربت على كتفي.. الجزء الباقي من جسدي الذي لم تخترقه أجهزتهم الطبية وهو يقول:

- يجب أن تحمدي الله كثيرا.. فحالتك أحسن من غيرك بكثير..

خرجت من المستشفى إلى البيت إنسانة أخرى لست أنا.. اكثر انعزلا، وأكثر انفرادا بنفسي، وأكثر حزنا واكتئابا، وسؤال حاد يتردد في عقلي حائرا دون جواب..

لماذا لا نحب بارادتنا، لماذا نحلم بالمستحيل ونطارد المجهول.. وتعاف أنفسنا ما بين أيدينا..

لماذا البعيد يكون دائما الأغلى والأجمل والأحب.. والمتناول يكون أبدا سلعة متدوالة نملّها.

حاولت أمي اختراق حاجز صمتي.. حاولت أختي برقتها المتناهية جذبي إلى عالمها الوردي.. حاول أبي بالقسوة وأخي بالتفاهم.. ولم تجد محاولاتهم في نفسي شيئا..

شخص واحد كنت انتظره.. كلمة منه كانت ستنتشلني من قاع الجحيم إلى جنة من جنات النعيم.. ولكنه في واد وأنا في واد آخر، وبجرأتي معه هوى آخر صرح من صروح احترامه لي ولم يبق سوى الاحتقار والاشمئزاز والكراهية.. رأيت هذا في تباعد مكالمته لأخي وندرتها وفي نظرات أخي لي..

وفي غمرة يأسي ومرضي وضياعي.. لاحت تباشير الأفراح في بيتنا.. امتلأ المنزل بالزغاريد والبهجة، وتألقت أعين الجميع بسعادة فشلوا في كتمانها عني.. فضحتهم تصرفاتهم وخانتهم أعينهم المترعة بالنشوة..

وقبل أن أتساءل عما يحدث، جاءني الخبر صاعقا قاتلا.. الحبيب وابن العم تقدم للزواج من شقيقتي "أمل" الفتاة الموفورة الصحة والعافية.. الجميلة الرقيقة الباسمة.. ولم يعرني ادنى اهتمام.. صدمة قوية أطاحت بكل أحلامي ومزقت قلبي.. ولكنني تمالكت نفسي بصعوبة.. وخرجت لأبارك لشقيقتي خطوبتها.. كانت تضج بالصحة والحيوية.. وفي قمة الأناقة والأنوثة والدلال.. استقبلتني باسمة، ولم تلحظ الدمعة الساخنة التي فرت من عيني..

تزوجت أمل، وطارت مع زوجها في رحلة شهر العسل.. ودخلت أنا إلى المستشفى منهارة للمرة الثانية في العام نفسه..

قالها الطبيب صريحة..

- لابد من عملية عاجلة.. قلبها في حالة خطرة..

لم يكن هناك مجال للتردد.. فوافق أبي على الفور.. وهو يعتقد أنها النهاية.. نهاية وحد لكل آلامي وعذابي ودموعي..

فتحت عيني وقد كرهت كل شيء، وبت أتمنى الموت من أعماقي..

ابتسم الطبيب وهو يهمس لي:

- لقد نجحت العملية نجاحاً غير متوقع، مما مكننا من فتح أحد الشرايين المسدودة.. الأن بامكانك عمل أشياء ما كنت تستطيعينها سابقا.. بامكانك ممارسة الرياضة.. والضحك بلا حدود.. وحتى الزواج..

تنهدت بحسرة.. فهل يعلم هذا الطبيب وغيره بأن من كنت أتمناه قد ذهب بلا رجعة.. حطم قلبي وذهب.. فلا يهمني تزوجت بعده أو بقيت العمر كله بلا زواج..

عدت إلى البيت لأتلقى أكبر صدمة شهدتها في حياتي.. شقيقتي الفتاة الصحيحة البدن، الجميلة الرقيقة، تموت فجأة في بلاد الغربة، وأنا العليلة المريضة مازلت على قيد الحياة..

يا سبحان الله..

وقبل أن أفيق من الصدمة المدمرة.. تلقيت مكالمة من فيصل.. ابن عمي.. وحبيبي السابق.. وزوج المرحومة أختي..

قال لي بصوت مرتعش:

إيمان.. هل مازلت.. أقصد هل.. هل ترغبين بي كالسابق؟.. وأقفلت السماعة في وجهه دون جواب!!

«تمت»

جمال لا يراه الناس

جمال لا يراه الناس

كنت أدرك تماما بأنني غير جميلة وان اللّه جلت قدرته لحكمة إلهية أجهلها لم يهبني ولو مسحة من جمال، ولا حتى ذرة جاذبية اداري بها قبحي وتنافر ملامحي..

كنت اعلم هذا منذ الطفولة.. من تهامس خالاتي وهن ينظرن لي بحسرة.. من نظرات ابي المشفقة.. من دموع أمي الكثيرة وهي تدعو لي بالستر والزواج دون بقية اخوتي.. وحينما كبرت قليلاً تعالت الهمسات إلى أصوات حادة تمزق أذني وتخترق قلبي بنصلها السام.. كانت الكلمات أكبر من ان تتحملها طفولتي الغضة وأقل من قدرتي على الاستيعاب.. كنت اسمع كلمات متناثرة عن ضخامة أنفي وضيق عيني.. الكثير يمزجون كلماتهم بضحكات عند الحديث عن شعري الاكرت وتشبيهه بشجرة ضخمة من أشجار الجميز.. كنت اضحك ومالبثت ضحكاتي ان تحولت إلى دموع.. دموع حزينة تحفر اخاديد من الاحزان على وجهي الدميم خصوصاً وأنا ألمح جمال اخوتي أمامي وازدياد جاذبيتهن وملاحتهن..

كنت مثار التعليقات والضحكات أينما كنت.. حتى كرهت الزيارات والحفلات والاعراس وحاولت مقاطعة الناس مقاطعة تامة أو على الاقل الظهور على الناس دون وجود اخوتي والمقارنة الصارخة التي ستحكيها أعينهم قبل ألسنتهم.. وكانت دراستي في الجامعة هي ملاذي الوحيد من غدر كل البشر.. فيها كنت اشعر بأنني طبيعية كأي فتاة أخرى في الوجود.. كنت اشعر بأن دمامتي ليست منفرة وان وجهي ليس بشعاً لأبعد الحدود وأن أنفي يعود لحجمه الطبيعي وعيني تتسعان..

ثقتي بنفسي كانت تعود بشكل كاسح في الجامعة.. وبعيدا عن جو أسرتي وجمال اخوتي الآسر..

هناك ابتعد عن نظرات أبي الكسيرة وعيني أمي اللتين توحيان لي بفيض من الاحزان.. وبلغت مأساتي قمتها حينما علمت بخطبة اختي التي تصغرني بعامين.. كان الأمر في بدايته همسا يدور بين الجدران.. وسرا فضحته العيون.. وبمحض المصادفة سمعت حواراً بين أمي وأبي.. كانت أمي تبكي وهي تقول:

- ان مستقبلها سيتحطم حينما تتزوج شقيقتها الصغرى قبلها.. سيعلم الخطاب بأنها دميمة وينصرفون عنها..

وسمعت أبي يرد عليها بهدوء:

- ليس مهما ان تتزوج شريفة.. ان مستقبلها العلمي أهم من كل شيء.. ستصبح دكتورة عظيمة..

في تلك الليلة انهار كل شيء.. آمالي وطموحاتي ومستقبلي..

وماذا يهمني كأي انثى في هذه الدنيا الواسعة..؟

ان كينونتي تتحقق في بيت صغير انا ملكته المتوجة.. وزوج حنون واطفال يملؤون علي حياتي، ان حبي للحياة استمده من انوثتي.. من تعطشي للحياة كأية فتاة ترنو إلى الاستقرار وتحن للعش السعيد.. وقتها فهمت كل شيء.. فهمت حرص أبي على دراستي دون بقية اخوتي ورعايته التامة لي في كل شأن من شئوني.. وحتى اختياره الدقيق لتخصصي في الجامعة.. انه يحاول ان يبني مستقبلي بعيدا عن احلام وطموحات الانثى.. انه يشق لي طريقاً في الحياة بعد ان فهم بقلب الأب انه لا طريق لي غير طريق العلم ولا مستقبل لي غيره وبكيت بحرارة.. هطلت دموعي الحارة لتغسلني من الداخل وتطهر قلبي من أية آثار لحقد

أو ضغينة على أحد، وحتى الغيرة التي احسستها تجاه شقيقتي تلاشت في ثوان، فلا ذنب لأحد في دمامتي حتى ولا والدي الذي ورثت أغلب ملامحه..

وفي زواج شقيقتي رسمت ابتسامة فرح على شفتي ومضيت غير عابئة بهمسات الآخرين وابتساماتهم الملتوية..

تمالكت نفسي وسيطرت على مشاعري وتجاهلت عيني أمي المليئتين بالدموع وهي ترمقني بحسرة.. وطردت من اعماقي المقارنة الخاسرة التي يجريها الناس بسرعة بيني وبين شقيقاتي... وحاولت أن ابدو أكثر مرحا وأشد الموجودات تفاؤلا..

لكنني ورغم كل شيء بكيت في النهاية.. أبت دموعي في تلك الليلة إلا أن تبلل وسادتي حتى الغرق.. كنت أبكي وحدتي وعذابي ونظرات الناس التي لا ترحم..

فوجئت بيد حانية تربت على كتفي وصدر أكثر حنانا يشدني إليه.. قالت لي أمي من بين دموعها الغزيرة:

- ستمر الأيام وستجدين من يحبك ويتزوجك.. صدقيني يا شريفة يا ابنتي.. ان فارس احلامك في الطريق إليك..

امتزجت دموعنا بين يأس ورجاء.. لم أستطع أن انطق وقتها.. اكتفيت بشلال الحنان الذي غمرني وانساني مرارة الشكوى وذل الانتظار..

في السنة النهائية من دراستي الجامعية.. وفي اختبار احدى المواد النظرية، أثارني احد الأسئلة وهو متعلق بالمقارنة بين الجمال المادي المحسوس وانطلاقة الروح نحو الجمال الداخلي الأبدي.. كانت اجابتي مذهلة حتى تعدت حدود قدرتي على التفكير..

وبعدها بأيام فوجئت بالاستاذ الدكتور الذي يقوم بتدريس تلك المادة

يستدعيني بعد انتهاء المحاضرة.. وقفت امامه بثقة اشرح له وجهة نظري فيما كتبت وتناسيت كل شيء عن ملامح وجهي وتنافره وبشاعته..

فوجئت به يرمقني باعجاب وفي عينيه لمعة غريبة لم أرها في نظرات أي إنسان نحوي.. أربكتني نظراته ومضيت ليلي افكر.. ترى.. هل.. ؟ مستحيل.. مستحيل ان يفكر كائن ما بفتاة شوهاء مثلي.. انه دكتور ورجل وسيم.. وعشرات من الفتيات يتمنونه.. فهل؟ واحاول اجهاض افكاري قبل ان تنمو في اتجاه منذر بالخطر قد يدمرني بعد ذلك..

ونسيت أو تناسيت.. لكنه لم ينس.. فوجئت بذلك الدكتور يستدعيني مرة أخرى ويناقشني في كل كلمة دونتها في ورقة الاجابة وعيناه تزدادان بريقا ولمعانا..

سألني لماذا هذا الكم من التشاؤم وعدائية الجمال.. امتلأت عيناي بالدموع وانا اشير إلى وجهي الدميم.. لكنه هتف مبهوراً:

- انت جميلة..

صعقت.. وقفت وأنا اترنح.. شعرت بما يشبه الاغماءة وتيار كالكهرباء يسري في جسدي ويعذبني.. وتركته دون كلمة واحدة.. وكلمته تلك تدوي في أذني كموسيقى رائعة تشنف الآذان وتحيل حياتي بأسرها إلى حديقة غناء، تمرح بين جنباتها الطيور المغردة.. قبل ان افكر في كلماته فوجئت به خاطبا.. نعم فقد تقدم لأبي يطلبني للزواج.. بكت أمي فرحا وعلق أبي والسرور الطاغي يتألق في عينيه:

- لكنه يا ابنتي يكبرك كثيرا في السن.. ثم انه منفصل عن زوجته السابقة.. قاطعته أمي والدموع لاتزال تبلل أهدابها:

- الرجل لا يعيبه سوى جيبه.. وهو بحمد اللّه رجل مقتدر..

بيني وبين نفسي همست "يكفي انه يحبني لذاتي وليس لأي شيء

آخر"

رفضت اقامة حفل زفاف واكتفيت باحتفال بسيط ضمنا انا وهو في بيت الزوجية.. سألته بصدق أكدته دموعي:

- هل تعتقد فعلا بأنني جميلة؟

اجابني وعيناه تتألقان بومضة اعجاب:

- أنت أجمل فتاة وقعت عليها عيناي.. انني أرى فيك مزايا قد لا يراها غيري ممن تجذبهم القشور.. انني أرى جمالك الداخلي.. انني احبك يا شريفة.. امتلأت عيناي بالدموع وأنا أحمد اللّه الذي لا يضيع أحدا..

«تمت»

..وسقطت في الهاوية

..وسقطت في الهاوية

أتحدث اليكم من مستشفى الأمراض العقلية.. لا لست مجنونة كما يتبادر إلى أذهانكم لأول وهلة.. بل عاقلة.. وعاقلة جداً.. أعقل من أي إنسان يعتقد بجنوني ويؤمن به.. وأعقل من كل من وصمني بهذه الوصمة إلى الأبد..

أنا الآن عاقلة وسط مجانين أحاول قدر استطاعتي الحفاظ على هدوئي واتزاني النفسي.. تساعدني في ذلك الاخصائية النفسية المشرفة على حالتي..

ولأبدأ لكم قصتي منذ البداية.. منذ تلقيت أول صفعة على صدغي وأنا صبية في السادسة عشرة من عمري.. لم يكن ابي من صفعني ولا أخي.. ولا حتى أمي.. كانت الخادمة الآسيوية هي التي فعلت ذلك وتلتها صفعات وصفعات حتى تعدى الأمر حدوده بأن جعلتني خادمة صبغيرة لها في كل شئونها، بدءا من غسل ملابسها وحتى تدليك قدميها الخشنتين..

وكل ذلك حدث وأمي غائبة.. غائبة عن البيت وغائبة عن الوعي في المستشفى شهوراً طويلة.. لمرض بدأ صغيرا ثم طال وتشعب وغدت معه الحياة غير محتملة.. فأمضت فترة طويلة في المستشفى تتعاطى المهدئات وتخضع لعلاج لا يجدي.. فبقيت موجودة وليست موجودة.. حية بالاسم فقط دون واقع ملموس يريحني ويريح عقلي الصغير من كثرة التفكير والبكاء بغير طائل..

كانت أمي تعامل الخادمة بقسوة وتمعن في ايذائها وتحقيرها ربما لأنها تشك في سلوكها.. وبعد غياب أمي عن خارطة حياتي استلذت

الخادمة تعذيبي وتفننت في زيادة شقائي وتعاستي.. كنت أبكي في فراشي كل ليلة ولا أجد من يربت على كتفي بحنان ولا أجد من يواسيني ولو بكلمة.. كان غياب أمي عن عالمي مؤلماً كانتزاع قلبي من احشائي.. وقد كنت طفلتها المدللة وحبيبتها المفضلة..

حاولت أن أشكو لأبي.. أبين له ولو جزءاً بسيطا من امتهان الخادمة لكرامتي وكبريائي، لكنه كان يصدني بجفاء وهو يهتف:

- انت مدللة وتنتظرين من الجميع ان يعاملوك كما كانت تعاملك "أمك"

- ابي..

يدفعني بقسوة قائلاً:

- يكفي ان الخادمة هي التي تقوم بشئون البيت.. لولاها لضعنا.. لا تحادثيني في هذا الموضوع مرة أخرى.. أفهمتِ؟

وشل لساني الصمت ودموعي تسيل على وجهي بغزارة وألمح من بين دموعي الخادمة وهي تبتسم بسخرية وعيناها تتوعداني بالمزيد من الضرب والتعذيب.. ولم أكن في حاجة لذكاء لأفهم أن الخادمة قد أثرت على عقل أبي وتفكيره واستبعد ذهني الصغير وجود علاقة ما بينهما..

ازدادت الخادمة سطوة وقوة وأبي يضع بيديها زمام الأمور ومقاليد كل شيء، حتى صرت أنا الضحية.. صبت علي جام غضبها وحقدها فتحول عمل البيت كله إلي وأصبحت لا آكل إلا الفتات.. فتات مائدتها.. حاولت أن أشكو لأخوتي.. الاكبر قال لي بهدوء يتصنعه:

- أنا أعتقد أن هذا هو عمل الفتيات ويجب ان تساعديها حتى لا تتركنا هي الأخرى.. وفهمت بأن الأولى هي أمي.. وهي التي تركتنا..

وبكيت.. بكيت بحرقة وأخي ينظر إلي صامتا مكتوف اليدين لا

يستطيع أن يفعل حيالي شيئا..

أما أخي الاصغر فلم يلق بالا وقد سلبته عقله هو الآخر كأبي..

لم أجد سوى أمي.. يجب أن تفيق من غيبوبتها.. يجب ان تعرف كل شيء..

وانتهزت فرصة غياب الخادمة وزرت أمي خلسة.. صدمت لمرآها صدمة هزت كياني وهوت بي إلى الحضيض.. انها ليست أمي التي أعرفها.. ليست الشابة التي تنضح بالصحة والحيوية والجمال.. انها هيكل.. هيكل امرأة.. أشبه بالميتة.. بل انها ميتة فعلا ولم يبق إلا إعلان وفاتها رسمياً..

الأنابيب والأسلاك الكهربائية تحيط بجسدها من كل جهة.. حتى انفها الشامخ تخترقه انبوبة طويلة وددت لو انتزعتها.. أمي.. أمي..

صرختها بأعماقي.. لا مجيب.. هززتها بقوة وأنا اناديها ولكنها لا ترد على ندائي..

وحين طوقني اليأس بأسواره الرهيبة صرخت بأعلى صوتي:

- أمي استيقظي أرجوك..

وتحشرج صوتي بالبكاء لافاجأ بجيش من الممرضات ينتزعنني بقوة من بين أحضانها..

لمن ألجأ ولمن أشكو وقد سدت الطرق في وجهي وتحول الناس إلى وحوش آدمية.. لمن اذهب وأي سبيل اسلك؟..

ووجدت قدمي تتجهان تلقائياً إلى بيتنا.. بيتنا الذي كان واحة أمان وجنة من الحب والود والتفاهم وتحول بقدرة قادر إلى عذاب لا طاقة لي باحتماله.. وكانت المفاجأة تنتظرني اذ لمحت الخادمة في حجرة أمي ومع ابي نفسه دون أحد غيره..

وتتوالى المفاجآت اذ طلبت الخادمة من أبي وعلى مرأى ومسمع مني أن أترك المدرسة.. بهت.. نظرت إلى أبي بذهول وكأني أتوقع منه أن يضرب الخادمة أو يصفعها أو يطردها على أقل تقدير.. ولكن اللطمة كانت موجعة والعذاب كان أكبر من قدرتي على التحمل اذ هز رأسه بعلامة الموافقة، وكأنه واقع تحت تخدير قوي..

وما هي إلا أيام حتى غدوت خادمة لخادمتنا بشكل رسمي لا أثر فيه لشك أو تساؤل.. تركت المدرسة وقبعت في البيت أكنس وأغسل وأطبخ غير الطلبات الأخرى الجانبية للخادمة واهاناتها لي التي لا تنقطع..

فوجئت بنفسي محاصرة من جميع الجهات واليأس يدب في أعماقي ولا حتى بارقة تلوح في الأفق.. ولا أحلام تساعدني على النسيان..

وفكرت في القتل.. نعم لا مفر من قتلها.. أقتلها وأستريح ويستريح أبي من سيطرتها واخوتي من ازعاجها المستمر لهم وشرها المستطير..

وتغلغلت الفكرة في اعماقي وتمكنت مني لدرجة الوسواس.. وكلما ازدادت الخادمة تعذيبا لي تعلقت بفكرتي أكثر وأكثر.. حتى عزمت اخيراً على التنفيذ.. ولم أنم تلك الليلة..

مضيت طوال الليل ساهرة أفكر ولم يغمض لي جفن..

وفي الصباح المبكر كنت استل اكبر سكين في المطبخ واتوجه بها إلى حجرتها.. حجرة الخادمة.. لكن المفاجأة اخلت بتوازني.. لم تكن وحدها في الحجرة، كان معها أخي الاصغر.. لم تكتفي بأبي بل سلبت عقل أخي أيضاً... وقبل أن اصرخ أو أنطق بأي كلمة نهض أخي بسرعة الصاروخ وانتزع مني السكين وخرجت هي تصرخ قائلة:

- مجنونة.. مجنونة.. مجنونة..

ولم أحس بنفسي إلا وأنا انتحب بحرقة.. أبكي فشلي وأبكي انحراف

أخي وأبي وأبكي أمي المريضة وابكي سيطرة هذه المرأة على الأسرة بكامل أفرادها..

وكما توقعت تماما.. ايدها أخي في روايتها عن جنوني.. وصدقها أبي ودمعت عينا أخي الاكبر وساقوني جميعاً إلى مستشفى الأمراض العقلية كما يساق المجانين.. ورفضوا تحمل مسئوليتي، ومنذ تلك اللحظة منذ عشر سنوات لم أر احدا منهم.. وأنا لا افكر سوى بالانتقام.. وسأنتقم يوما ما..

«تمت»

إمرأة في بيتي

الحكم بالإعدام نطقته الطبيبة بلا اهتمام، وكأنها تلقي نكتة مضحكة.. أو حكمة طريفة.. قالت وهي تعبث بسماعتها الطبية:

.. الأمل معدوم.. لن تستطيعا الانجاب.. سوى بمعجزة إلهية..

التقت نظراتي وزوجي.. نظراتي اليائسة الخائفة بنظراته القلقة الحزينة.. فتعالت الشهقات داخل نفسي.. شهقات باكية متضرعة تدوي في رأسي كالمطارق الحادة وتصم آذاني عن سماع أي شيء بعد هذا الحكم الرهيب..

تشابكت أيدينا بعصبية ظاهرة تجمعها المأساة المشتركة ويعصرها الألم الممض الذي يضرب بجذوره داخل أنفسنا ليمزقنا حتى الضياع..

قبل أن نخرج من حجرة الطبيبة.. أردفت بصوت بارد وهي تمضغ أحلامي:

- لا تيأسا من رحمة اللّه.. إنه على كل شيء قدير..

لم استطع مقاومة نفسي أكثر من هذا.. فهطل الدمع من عيني غزيراً.. حارا.. موجعاً.. بقدر يأسي وعذابي وحزني.. سبحان اللّه كم تتبدل الأحوال.. قبل فترة قصيرة كنت ارقص من فرط السعادة بعد أن اخبرتني جارتي بأن هذه الطبيبة هي أفضل طبيبة في العالم العربي.. وان شقيقة جارتها "سعاد" قد حملت على يديها بعد عقم دام سبع سنوات.. وأيضاً فاطمة ابنة عم زوجها قد انجبت "توأما" بعد علاجها لدى هذه الطبيبة الرائعة..

وسناء.. وسارة.. و.. حتى طار عقلي.. ودارت معه أحلامي.. فركضت إلى زوجي أزف له البشرى بأن هذه الطبيبة التي نتداوى على يديها..

يدها مباركة وأن المئات من فاقدي الأمل في الإنجاب قد رزقهم الله بأطفال على يديها.. ابتسم زوجي برقة وهو يقول:

- اننا لن نفقد الأمل أبدا بإذن الله، وسنرى ماذا تكون عليه النتيجة النهائية للتحليل.

ليلتها لم يغمض لي جفن.. سكن الحلم عيني، فلم استطع إغماضهما.. وصراخ الطفل وضحكاته.. ولفتاته كلها داعبت أطياف أحلامي.. ولكن الحقيقة القاسية كانت اللطمة الكبرى التي أفاقتني على واقعي المرير.. أنا لا أنجب.. معني هذا أنني شجرة جدباء.. امرأة فاشلة لن استطيع تكوين بيت واسرة.. يكفي أنني لن احقق لزوجي حلمه الأوحد بأن يكون له ولد يحمل اسمه..

وقفت امام زوجي ارتجف كورقة خريفية تتقاذفها الرياح.. قراري الذي اتخذته كسا وجهي بملامح صارمة مخيفة.. أبدا إنها ليست ملامحي..

بصوت حاسم قلت له:

- سالم.. يجب أن تتزوج بأخرى..

فوجئ.. واجهتني عيناه بتساؤل صامت ودمعة حائرة تلوح في مقلتيه.. تابعت بحرارة:

أرجوك افهمني.. أنا لا أستطيع أن أحقق حلمك بالإنجاب.. من حقك ان تتزوج.

صمت.. طال صمته حتى تجاوز حدود أحلامي.. وأيقنت من خلاله أن قراري الذي اتخذته لم يكن إلا صائبا..

اخيرا قال بتداع:

- ولكن.. أنا لن أحب غيرك يا سلمى..

تهاويت في فراشي باكية وأسوار اليأس تحيط بي وتطوق كل شيء في حياتي..

هل هذا هو موقف زوجي من قراري الخطير؟ هل هذا هو رده على تضحيتي الكبرى؟ موافقة ضمنية مغلفة بأسى.. هل توقعت هذا عندما فكرت بالتضحية باستقراري وسعادتي من أجله.. وماذا أتوقع من رجل عاش محروما من الإنجاب مدة عشر سنوات بدون أن يشكو أو يتبرم..

هل كنت ظالمة له طوال تلك المدة.. وتضحيتي هذه كان زمنها من سنوات خلت..

خنقتني الاسئلة الحائرة.. وأنهكتني افكاري المتسائلة.. ومن بين ضباب دموعي رأيته يريت على كتفي بحنان..

قلت له ببرود:

- متى ستتزوج؟..

أجابني بانكسار:

- لندع كل شيء لأمي.. وللظروف..

لم تتوانى والدته عن تقديم كل مساعدة ممكنة له.. وفي ليلة زواجه.. الليلة التي سوف ينتزعونه فيها من بين أحضاني بقسوة.. اقتربت منه ببطء وأنا احاول إصلاح هندامه كعادتي كل يوم.. اغتصبت ابتسامة وأنا أهمس له:

- أنت اليوم عريس.. ويجب أن تكون في قمة أناقتك..

أخفى وجهه بين يديه.. وبكى بمرارة.. عندها فقط أدركت أنني فقدته إلى الأبد..

تواريت في إحدى حجرات المنزل وأنا أقاوم غثياني.. لمحته وزوجته الجديدة.. إنها رائعة رغم أنني افوقها جمالاً..

عذبتني المقارنة.. فألقيت بنفسي في سريري البارد لاتقيأ مافي جوفي وصورة زوجي لا تغادر عيني..

لماذا أضحي فجأة بمن يمثل كل شيء في حياتي؟.. لم أشعر الآن بأن حياتي قد انتهت عند هذا الحد، وأن لا أمل في غد مشرق أو مستقبل باسم سعيد.

لم أستطع مقاومة نفسي حتى النهاية.. فأسرعت أطرق باب حجرته.. مرت فترة طويلة قبل أن يسفر الباب عن وجهه القلق.. لمحتها مكاني على السرير.. انتفض قلبي بين ضلوعي ألماً وعذاباً..

تساؤل صامت في عينيه لم يجرؤ النطق به لسانه.. همست وأنا ألهث:

- سالم أنا متعبة.. أريد الذهاب للمستشفى..

التفت إلى الخلف متسائلاً بحرج:

- الآن؟!!

همست بضراعة:

- الآن.. أرجوك..

استأذنني في ارتداء ثيابه.. والظلام من حولي يشتد.. وعذابي يتضاعف.. وغثياني يزداد ضراوة..

هل كتب علي العذاب.. وأنا أرى زوجي الذي عشت وإياه في جنة من الأحلام.. رجلاً لامرأة أخرى تحتل سريري وذراعي زوجي ومخدتي.. وحتى أحلامي.. ويكون نصيبي من هذا كله مجرد فراش صغير في حجرة باردة مظلمة لا يملأها إلا السراب..

امتلأت عيناي بالدموع وأنا أرى زوجي يستأذن زوجته الجديدة..

وفي الطريق إلى المستشفى قال لي ووجهه يشي بغضبه:

ألم تستطيعي أن تؤجلي كل شيء إلى الغد؟..

شرقت بدمعي ولم أرد.. تابع وكأنه يلومني:

- أرجو أن تسيطري على مشاعرك مرة أخرى.. فهذه الأخرى أصبحت زوجتي.. ولها من الحقوق مثل مالك تماما.. يجب أن تفهمي هذا جيداً..

غرقت في لجة من الصمت وإحساس معذب يخترق كياني بأنني وحيدة في ألحياة كقارب صغير فقد مرساه، فمضى تتلاطمه الأمواج حتى أشرف على الغرق..

أفقت على المفاجأة التي زلزلت كياني.. الطبيبة نفسها التي حطمتني قالت بحماس:

- مبروك.. انت حامل.. إنها معجزة إلهية نادرا ما تحدث في مثل حالتك.. مبروك مرة أخرى..

ولم أسمع بقية كلماتها فقد تهاويت بين ذراعي زوجي فاقدة الوعي..

افقت بعدها على إحساس طاغ بالسعادة.. عجباً لهذه الدنيا المتقلبة.. البارحة فقط كانت الدنيا في نظري سوداء حالكة كالليل البهيم.. والآن انقلب السواد إلى بياض مبهر.. وتحولت الأشواك إلى رياحين والمخالب القاسية إلى أياد ناعمة تهدهدني بكل الحب والحنان..

هتف زوجي والفرحة الصاخبة تضطرم في أعماقه:

- مبروك.. مبروك لنا المولود القادم..

ابتسمت له برقة.. ولكنني تذكرت.. تلك القابعة في داري.. على نفس سريري.. وتشاركني في زوجي.. تلاشت أطياف السعادة وسط ضباب الواقع الكثيف..

هذا الطفل الذي تمنيته طويلاً أحسست بأنني لا أريده..

وما يفيدني الطفل وزوجي ليس إلى جواري.. ما نفع طفلي وزوجي يلتمس السعادة مع أخرى ستكون هي أيضاً أم أولاده..

تحدرت الدموع على خدي وزوجي يقودني نحو بيتنا.. إنه لم يعد بيتي أنا وحدي.. ولم أعد أنا سيدته الوحيدة..

بكيت بشدة أمام باب البيت.. شدني زوجي برقة إلى الداخل..

دارت عيناي في أرجاء المكان بحثا عنها.. دخل زوجي إلى حجرته.. عاد بعد لحظات وبيده ورقة وعلى وجهه علامات قلق شديد..

سلمني الورقة بصمت.. قرأتها بسرعة..

"أنا لست لعبة بيديك.. أرجوك طلقني"

((زوجتك الثانية))

نظرت إليه بخوف ودموعي تهطل بغزارة..

ابتسم فجأة.. ثم ضحك بشدة وهو يقول:

- ما رأيك.. أليس هذا هو الحل المناسب للجميع؟..

«تمت»

أبداً..

لا يغدو المنفى وطناً

أبداً.. لا يغدو المنفى وطناً

إلى أين؟

ويتفجر السؤال فقاعات صغيرة تتغلغل في ذاتي بلا انقطاع.. تتوالد أسئلة صغرى تتبعها أسئلة ثم تتوالى الاستفهامات وتخترقني بأنصالها الحادة.. ماذا بعد؟.. كيف؟ متى؟.. وإلى أين؟..

لقاؤنا الأول كان عبر الهاتف.. خطأ في الرقم قادنا إلى حكايات صغيرة، متسلسلة.. كانت تلك الحكايات، بحيث كان لابد من اتصال آخر وآخر.. ثم آخر.. صوته يتعمق في شراييني ويتخللها ويذوب في الدماء.. تصورته بعين خيالي حالما رومانسيا انيقا.. أحببت تلك الصورة كثيرا وعشقت خيالي لدرجة رهبت بها دنيا الواقع.. وآه من هذا الواقع الذي لا يدريه.. رغم كل القصص التي رويناها لبعضنا، وكل الضحكات التي تبادلناها سويا.. وكل التفاصيل الصغيرة التي طرقناها معا.. حتى خفقات قلبينا النابضة على استحياء..

لم يعلم بواقعي البشع.. لم يدر أية امرأة تلك التي تحادثه.. لم يعلم بدنياي المتخمة بالمآسي ونفسي المثخنة بالجراح وذيول الخيبة التي اجرجرها ورائي في كل مكان أسير اليه.

وهل استطيع ان اعلمه بكل شيء دون ان ابكي.. دون ان اصرخ.. دون أن تمزقني الآهات وتحرقني الزفرات.. دون أن اذيب اسلاك الهاتف بحرارة الداخل والدموع التي تنهمر بلا حساب..

هل يتغير شيء حينما يعلم بالماضي الذي أرزح تحت قيده والأيام التي أمضيتها في عذاب وأنين.. هل تتغير نظرته وبالتالي كلماته وحكاياته.. هل واقعي منفر لدرجة اليأس.. امرأة مطلقة، في ماضيها بصمات لا

تنسى لرجل بلا كرامة ولا كبرياء ولا حتى رجولة وأطفال خمسة بعيون تائهة حيرى وصفعات وجراح لا تندمل..

رياح الماضي المشبعة بالعفونة والذل لا تزال تلفح اجوائي وتغتال أيامي وتلبس انتظاري الآتي ثوب السواد..

مرارة التجربة لا تزال عالقة بفمي وآثارها الدامية على كل جزء من جسدي، ونتائجها ترافقني في وجوه أطفالي الخمسة، ثلاثة عشر عاما أو يزيد من التعاسة المحضة.. كيف نسيتها كلها وانتزعتها من عالمي ومضيت أتحدث كفتاة لاهية في ربيع العمر.. قمة الفرح والأمل والحيوية.. كيف تجاوزت كل شيء وتحدثت بهدوء رغم البركان الذي يغلي داخلي..

أتعجب.. عشرات التساؤلات تطرق رأسي.. كيف ضحكت..؟ كيف تكلمت؟.. بل كيف تجاوبت وحكيت؟

تبادلنا الحديث بكل شيء، بيد أننا لم نطف بحديث حب.. ولا أشواق تعصف في الفؤاد.. ولا أنات تعتصر المشاعر وتحيل كل شيء إلى لهيب..

اغفاءة لذيذة يحملني اليها بعيدا عن واقعي المعذب.. تتلاشى المرأة الكسيرة داخلي المثقلة بالاعباء والمضمخة بالحسرات، ويعود الزمن اعواما إلى الوراء، فينطلق صوت فتي لا علاقة له بصوتي.. وروح مرحة ابدا ليست روحي وتتألق العينيان بوميض الفرح ويعربد الجنون.

هل من حقي أن اعايش هذا القلق الممتع.. والانتظارات المبطنة بأجواء الترقب واللهفة..

الارق الحالم وخطواتي الراقصة.. ابدا لا يغدو المنفى وطنا!!

الأيام تترى.. تندمل الجراح القديمة.. شعرت باحساس غريب، لم اعرفه من قبل.. خليط من الفرح والترح. السعادة والتعاسة، ومضات من

الأحلام تخدرني حتى أصير إلى سراب..

اللقاء الثاني لم يضق به عالمي الرحب.. كان مصادفة.. لم يسع إليه أحدنا.. تناهى إلى سمعي صوته الرائع.. ذات الصوت..اتبعته تلك الضحكة الصاخبة المميزة.. ذات الضحكة.. سرى في جسدي ما يشبه التيار.. التفت بغتة.. رأيته روئ العين.. هل هذا.. هو.. ماذا أقول؟ فتى أحلامي.. لا ليست لي أحلام.. إذن هو ذلك الرجل الذي قلب حياتي رأسا على عقب وحرمني القدرة على التمييز

نعم انه هو بصوته اللاهي وضحكته العابثة.. انه مع ثلة من أصدقائه.. ترى ما الذي يضحكه؟

أعادتني صغيرتي إلى أرض الواقع وهي تصرخ غاضبة.. شقيقها خطف لعبتها، طفلي الرضيع تقيأ، رفضت شقيقته الكبرى أن تحمله، جذبني ابني الأوسط من يدي بقوة.. سرنا معا.. لم التفت ورائي..

تلك الليلة.. الهاتف يرن بإلحاح.. ودموعي تتحدث..

«تمت»

الرجل الحائط

الرجل الحائط

دخلت إلى القاعة مترددة.. مئات العيون تحدق بي.. تذكرت كلمة أمي المأثورة "لا تنظري إلى أحد وثقي في نفسك" رفعت رأسي بكبرياء مزيفة.. وأنا أعلم تماما بأن كل حركة من حركاتي مراقبة..كشريحة تحت ميكروسكوب، جاءني صوت داخلي "يجب أن اضبط الطالبات، فهذه قاعة امتحان".. بحثت عن صوتي فلم أجده.. سحبت نفسا عميقا من صدري، وكأني استجمع شتات نفسي، ثم قلت بكل ما أملك من قوة:

- الرجاء الصمت.. وكل طالبة تنظر في ورقتها فقط فهذا امتحان

خرج صوتي ضعيفا متهافتا على غير ما توقعت وأردت، خيل إلي أن جميع الطالبات يسخرن مني ومن ضعفي، ولأهرب من نظراتهن الموزعة بيني وبين أوراق الإجابة، مشيت خطوات بطيئة مهزوزة نحو نهاية القاعة.. ثم جلست في مقعد أرى فيه الطالبات دون أن يروني.. استرحت لمقعدي هذا.. وسرى في نفسي إحساس بالهدوء وأنا ارقب الطالبات من الخلف.. شيئا فشيئا هدأت القاعة وعم صمت مريح في المكان.. شيء تسلل إلى أعماقي تحقنه كإبرة مخدرة ضعضعت كل حواسي.

هاجمتني الذكريات كوحوش مفترسة.. ذكرياتي أنا ما هي إلا مأساة دامية مزجت سطورها بدمائي..

ما ذنبي عندما أخرج إلى الدنيا وليس لي أب فيها..

تنكسر الأسئلة على لساني البريء وأنا ألمح الحزن الدفين في عيني أمي وأئد في داخلي عذابي وحرماني حتى من نطق كلمة "بابا"

لم أتأقلم على هذه الحياة الناقصة كأختي التي تكبرني بعامين.. لذا

نشأت عقدة في داخلي.. عقدة غريبة من الآلام والحرمان والعذاب.. عقدة أشعر بها كلما رأيت أباً مع أطفاله.. أو حتى رجل مع زوجته.. وكأن عقدة أمي انتقلت إلي هي الأخرى، فأصبحت أعاني من عقدتين عقدتي وعقدة أمي.. حتى حُلت عقدة أمي.. نعم فقد تزوجت..

وانتقلنا أنا وأمي وأختي من دار جدي إلى بيت يضمنا والرجل الغريب.. نفرت منه منذ أول يوم رأيته فيه.. لم أر صورة الأب التي عايشتها مرارا في أحلامي.. ولم أشعر معه بالحنان الذي أتوق إليه.. ولا حتى بالأمان..

ومرت الأعوام وأنا احاول محاولات مستميتة أن أتأقلم مع هذا الوضع، أن أرى في هذا الرجل الغريب أبي الذي فقدته، والحياة الكاملة التي أتمناها، ولكن تلاشت كل أحلامي ذات يوم حين رأيت هذا الرجل يلاطف شقيقتي.. واستمرأ هذا الأمر.. فتعدى كل حدوده وبدأ يطاردها في كل مكان تلجأ إليه.. أشفقت على شقيقتي "نهاد" وعلى وحدتها وضياعها.. نهضت على بكائها ذات ليلة.. فأخذتها بين أحضاني لتبلل دموعها خدي.. ويرتفع نشيجها ويشق صدري..

وقررنا أن نواجه أمي بما يحدث من زوجها من تصرفات صبيانية ولكن ما أن فاتحتها بالأمر حتى صرخت بوجهي في ثورة عارمة رافضة كل شيء.. ماتت عباراتي في فمي.. انتحرت قبل أن تولد.. مشيت أجر أذيال الخيبة.. وسؤال ينخر عقلي بحثا عن إجابة.

"أيهما أبقى الأمومة أم الحب؟.. هل الأمومة إحساس أم عطاء؟"

أستاذة..

انتشلني اللقب من أوجاعي الكثيرة.. وعدت إلى جو القاعة مرة أخرى.. وقفت أتلفت بذهول ابحث عن صاحبة النداء.. ابتسمت بوجهي

احداهن:

- أستاذة.. أريد قلما ومسطرة لو سمحت.

أعطيتها ما طلبت وعدت لمقعدي واجمة، «قلم».. نعم ان حكايتي بدأت بقلم، فبعد خروجي من الجامعة في أحد الأيام سقط من حقيبتي قلمي الثمين، لأرى شابا وسيما يناولني قلمي بابتسامة وهو يقول:

- عفوا.. لقد سقط منك هذا القلم..

تناولته منه بأصابع مرهفة وقد أسرتني ابتسامته الرائعة لافاجأ برقم هاتفه مثبتا بورقة على القلم..

تجاهلته أياما كثيرة.. حتى تجاسرت يوما ما.. وسمعت صوته..

تعددت المكالمات بيننا لكي تنسيني جو بيتنا الحزين.. ووجه أختي الذابل.. نظرات أمي الذليلة.. وجدت فيه هويتي المفقودة ورجلي المنشود..

لم يخيب رجائي.. فتقدم لزوج أمي خاطبا.. رأيت الفرحة تتلألأ في عيني زوج أمي.. ووجه أمي يتألق بالسرور.. فأنا في نظرهم عبء يسعدهم التخلص منه.. ولكن شقيقتي الحبيبة.. كيف.. كيف أتركها بين يدي وحش مفترس.. ضمتني شقيقتي هامسة:

لا عليك يا حبيبتي.. تزوجي أنت وعيشي حياتك.. أما أنا فسأعرف كيف أتدبر أمري..

طرقة الباب القوية أعادتني إلى أرض الواقع.. هززت رأسي بقوة ونهضت بهدوء لأتسلم ورقة التوقيع من المستخدمة العجوز.. درت على الطالبات لكي يوقعن على الورقة ثم عدت لمقعدي.. لأوقع أنا أيضاً بصفتي مراقبة على الامتحان.. آه.. التوقيع.. عادت إلى مخيلتي صورتي وأنا أوقع على عقد زواجي، كنت أرتجف وعيناي ممتلئتان بالدموع،

التفت لأرى الوجوه المتحلقة حولي.. وجه أختي الممتقع.. ووجه أمي الحائر.. ووجه زوجي السعيد.. وقعت على وثيقة زواجي، ثم غادرت بيت أهلي إلى بيت زوجي..

لم أدرك أن التعاسة الزوجية تبدأ بكلمة إلا حين قال لي زوجي ذات يوم وهو غاضب:

- أمك تزوجت قبل أن يجف قبر والدك، وأنت لم تتورعي عن الاتصال بي عبر الهاتف..

فكيف أثق بك بعد ذلك كيف؟..

هوت كلماته كصفعة على صدغي لأعود إلى الواقع المرير.. وان السعادة ابعد أن تطالها أحلامي.. عدت إلى منزل أمي مطلقة بعد عام واحد فقط من زواجي..عدت أحمل جنينا داخلي وجرحا عميقا بعمق آلامي يئن في نفسي ويستصرخها دموعا.. رمقني زوج أمي بنظرة ازدراء قائلا:

- كنت أعرف بأنها ستعود قريبا..

انهرت باكية بين ذراعي شقيقتي، تلاحقني أمي ودمعة حائرة تلون عينيها بلون الأمومة العذبة..

ترى هل حنت أخيرا.. هل تغلبت غريزة الأمومة على اسطورة الرجل الحائط؟..

ألقيت بنفسي بين احضانها، تطاردني شتائم زوجها ولعناته.. امتزجت دموعنا بخليط من الحب واليأس.. أنها أمي رغم كل شيء..

لو سمحت أستاذة..

اهتززت لسماع الصوت.. عدت لقاعة الامتحان مرة أخرى.. وقفت ابحث عن مصدر النداء.. أشارت لي احدى الطالبات بالاقتراب منها..

ثم قالت لي بصوت خافت:

أستاذة.. هذا السؤال صعب ولم استطع الاجابة عنه.. تناولت منها ورقة الاسئلة.. أعدت عليها قراءة السؤال بوضوح.. هزت كتفيها وهي تقول:

- أنه سؤال معقد..

صفعت أذني الكلمة.. معقد.. الكلمة نفسها التي قالتها أمي لزوجها أثر خلاف بينهما من أجلي.. صفعها بقوة ثم أنهال عليها ضربا وتوبيخا.. بعدها خرج ولم يعد تاركا أمي غارقة في دموعها واحزانها حتى وصلتها ورقة الطلاق.. فأصيبت بانهيار حاد لزمت على أثره فراشها لا تغادره إلا لماما.. لم استسلم لعواصف الحياة التي اخذت تهزني من الداخل.. فبعد أن انجبت طفلي عدت لإكمال دراستي تؤازرني شقيقتي وتشجعني عينا أمي المنهكتان

ويدفعني إلى الأمام مستقبل طفلي المظلم.. حتى تخرجت بامتياز وعملت في مدرسة ثانوية تجاور بيتي.. في أول يوم لي في المدرسة.. رافقني طفلي إليها.. ثم أمرت السائق باعادته إلى البيت.. وعندما عدت ظهرا وجدت الحزن يخيم على البيت ومظاهر التعاسة والألم تكاد تصرخ في وجوه كل من أراهم.. حتى سائقي.. قبل أن انطق.. فوجئت بشقيقتي تضمني إلى صدرها بحرارة وهي تبكي.. هززتها بعنف رافضة الحقيقة التي تكاد تنجلي في عينيها.. صرخت بقوة:

أين ابني؟.

ترددت صرخاتي في أرجاء البيت الحزين ليرن صداها في أذني ويمزقني.. يمزقني حتى النخاع.. تحول الصمت إلى طنين مزعج.. وتراءت لي أختي وأمي كأشباح مرعبة تكاد تخنقني.. صرخت بذهول:

- ابني مات.. مات أليس كذلك؟.

وسقطت بعدها فاقدة الوعي.. طالت اغماءتي حتى تجاوزت الشهرين.. ثم عرفت بعدها سبب موت ابني..

أستاذة..

فتحت عيني بذهول وكأني افيق من حلم مزعج.. سألت الطالبة بهدوء: ماذا تريدين؟

همست الطالبة:

أستاذة آخر سؤال.. هناك خطأ إملائي

استفسرت من طالبة أخرى.. وصححت لها الخطأ.. خطأ.. نعم.. لقد مات ابني الحبيب

عن طريق الخطأ.. خطأ بسيط من السائق أودى بحياة ابني وتحللت من آخر رابطة تربطني بوالده.. وعدنا كما كنا سابقا أنا وأمي وشقيقتي واطنان من الوحدة واليأس والعذاب..

حاولت اختراق حاجز وحدتي بانخراطي في التدريس، ولكنني لم اعد ابدا كما كنت، اصبحت حطام امرأة، اشلاءً متحركة تمشي على قدمين.. صرخة قوية انتشلتني من أفكاري بعنف.. وقفت المديرة والشرر يتطاير من عينيها.. نظرت لي بوعيد ثم اتجهت للسبورة وكتبت عليها بخط كبير "يعاد الامتحان مرة أخرى بسبب الغش".

•

إمرأة في سيارة أبي

إمرأة في سيارة أبي

قبل أسابيع فقط من زواجي حدث الانقلاب المريع في حياتي..

مات أبي.. مات في حادث سيارة..

وكان الحادث من الفظاعة بحيث لا ينسى أبدا ولا يغادر ذاكرة الناس إلا لماما..

انحرفت سيارته اليابانية الصغيرة عن الطريق ليتفادى الاصطدام بسيارة أخرى قادمة بسرعة من الاتجاه الآخر.. فارتطمت بعمود كهرباء مما شطرها إلى نصفين وحولها إلى كتلة هائلة من اللهب.. ومات أبي محترقا.. الأفظع انه لم يكن وحده في السيارة.. كانت ترافقه امرأة.. امرأة غريبة وجدها رجال الشرطة ملقاة على الأرض تنزف دماً بغزارة.. ولم تمت تلك المرأة، ولكنها أصيبت بنزيف داخلي أدخلت على أثره حجرة العناية المركزة.

أخذ الحزن بعقولنا.. وشلتنا الصدمة المفاجئة.. تلتقى أعيننا بغير كلام وفي الدمع ألف سؤال وسؤال..

من تكون هذه المرأة؟ ولماذا ترافق أبي في سيارته..؟

هل هي..؟ ويعجزنا الألم عن التصور والايضاح..

تكون من تكون.. الأهم أن أبي مات.. أبي الإنسان الرقيق الحساس.. كمٌ هائل من الحنان يحرك خطواته.. يغلف عينيه الوادعتين غشاء لامع من الدمع نادرا ما يغادرهما.

يحب الصغير والكبير ويحترم أمي احتراما عظيما، ويكن لها حبا ممتزجا بعطف.. لم أره يوما يعنّفها أو حتى يوجه لها ولو كلمة قاسية..

اتجهت إلى أمي يحركني احساس عنيف بالشفقة.. كانت جزعة

ذاهلة.. حيرى لا تدري أتبكي على الحبيب الراحل أم تتساءل عن سبب وجود هذه المرأة الغريبة معه في السيارة..

لا تدرى أتحزن أم تدهش.. تتسربل في الصمت أم تسأل وتتحرى.. تسكت أم تتكلم؟

تتنازعها انفعالات شتى وعذابات تمزقها بالحيرة والتشتت والضياع..

مزقت حاجز الصمت وواجهتها دون مواربة:

- أمي هل كنت يوما تشكين بأبي..؟ أعني هل كان يوما موضع شكوكك بأنه على علاقة بامرأة أخرى؟.

بهتت.. اتسعت عيناها بدهشة مفاجئة وكأنها لم تتوقع مني أن أهتك أستار الماضي حتى ولو من أجل الذكرى الطيبة للأب الراحل.

تحدرت الدموع على وجنتيها وسالت بغزارة لتبلل رداءها الأسود.. خلتها تغرق بدموعها.. أعدت سؤالي وصوتي يتهدج:

- أمي.. أريد أن أعرف.. أريحيني باللّه عليك..

علا صوت نشيجها الخافت في سكون الحجرة الشامل.. مضت دقائق قبل ان تستجمع شتات نفسها وترد بخشونة:

- لا أسمح لأحد بأن يتحدث عن والدك -رحمه اللّه- بأية كلمة سوء.. أفهمت يا دلال..؟

ولم أفهم.. ولم أعرف كيف تكون كرامة الزوجة التي تأبى الاعتراف بأخطاء زوجها ولو رحل..

ولم أكن الوحيدة التي سألت أمي هذا السؤال.. بل وجدت أعين الجميع تتساءل والسخرية تلون وجوه الحاقدين..

ومهما تجاهلت أمي الجميع فلم يكن بمقدورها أن تتجاهل رجال الشرطة وهم يوجهون لها السؤال نفسه.. حبست أنفاسي وأنا أسمع

ردها:

- كلا.. لم يعرف في حياته غيري..

- كلا.. لم يكن يغادر البيت إلا لماما..

- كلا.. لم يكن من هواة السفر والرحلات..

- إنه كان مؤمنا ويصلي ويحب بيته وأولاده..

وتنهار أمي في نوبة بكاء هيستيرية.. وأبكي أنا خلف الجدران في صمت..

كانت الدنيا تعدني بمفاجأة أكبر وأقوى.. وكأن فقدان أبي لا يكفي لتحطيمي.. فوجئت بصالح زوجي المقبل يحادثني.. ولم يكن قد حادثني منذ تعزيته لي بوفاة أبي..

قال باضطراب يفضحه ارتعاش صوته:

- دلال.. لقد انتشر الخبر بين الناس.. الجميع يتحدثون عن أبيك ويقو.....

قاطعته بحسم:

- صالح ماذا تريد أن تقول؟.

تلجلج في الكلام.. ابتلع ريقه بصعوبة وهو يقول:

- لا.. لاشيء.. فقط.. إن الفضيحة..

وأغلقت سماعة الهاتف في وجهه.. وانكفأت على الهاتف أبكي.. لقد فهمت.. فهمت كل شيء..

انه يتخلى عني.. يتخلى عني من أجل كلام الناس.. لم يقف إلى جانبي كأي صديق مخلص وزوج محب.. بل انهار كل شيء أمام أول اختبار.. سقطت الأقنعة وبدت الحقائق عارية وتمخض كل شيء عن لاشيء..

وقفت أحدق في المرآة بذهول وأنا لا أكاد أصدق..

صالح أول حب تفتح عليه قلبي.. هو الذي سعى إلي ووسط كل قريباته ليفوز بقلبي.. هو من رفضه أبي أول مرة لضعف شخصيته.. ووافق عليه في المرة الثانية عندما رأى دموعي..

هو الذي بكى تحت قدمي ليلة عقد القِران غير مصدق بأنني أصبحت زوجته..

هو.. هو.. أكاد لا أصدق ما حدث..

ولكنني صدقت وتيقنت من كل شيء حينما رأيت ورقة الطلاق أمام عيني ونظرة الشماتة التي لمحتها في عيني أخته وهي تقول:

"كل شيء قسمة ونصيب.. كلام الناس لا يرحم"..

امتلأ بيتنا بالأحزان وارتدت الأشياء ثوب الحداد.. وازدادت أمي حزنا واكتئابا وقد ساءها ما حدث لي..

وازدادت انعزالا وهروبا عن الناس.. واكتسى وجهها الناعم بصفرة مخيفة.. لمحتها تبكي مرارا وتحادث نفسها كثيرا وتلوم أناسا لا أعرفهم.. حتى خشيت عليها أن تفقد عقلها..

اقتربت منها كثيرا وربطت المأساة بين روحينا بعد أن هجرنا الناس وتخلى عنا أعز الأحباب.. وكثيراً ما شوهدنا نبكي معا..

ولكن الفجر لابد أن يعقب الليل والنور يكتسح الظلام..

لم تكشف تحريات الشرطة سر تلك المرأة التي كانت ترافق أبي يوم الحادث ولم يبدد نشر صورتها في الصحف المحلية غموض الحادث الغريب..

لكن إفاقتها من الغيبوبة التي قضتها شهرا في العناية المركزة كان الأمل الذي بعث الآمال في النفوس وان كانت آمالا خائفة تخشى ما لا

تود سماعه..

وكانت المفاجأة التي فجرت الدموع من العيون وفتحت الجراح التي اقفلت على صديد..

كانت المرأة هي الخادمة المغربية التي أعدها أبي مفاجأة لأمي.. وقد حضرت في اليوم نفسه الذي حدث فيه الاصطدام البشع.. وقد أرادها أبي مفاجأة لأمي، فكم اشتكت أمي مرارا بأن خادمة واحدة لا تفي بمتطلبات البيت والأطفال..

فمضى أبي في إجراءات الاستقدام بهدوء وسرية لتكون احدى مفاجآته المفرحة التي غالبا ما أدخلت السرور إلى نفوسنا..

لكنها في تلك اللحظة تحولت لمفاجأة حزينة..

استدرت الدمع من المآقي ودفقت ينابيع الاحزان.. فبكينا على أبي الراحل كما لم نبك من قبل.. ولأول مرة منذ الحادث أرى أمي تبكي وفي دموعها صدق الاحساس وراحة المعرفة وحزن الحبيب.. لم تكن حيرى ولم تكن قلقة وشاركتنا خادمتنا الجديدة البكاء وهي تخبرنا انها لم تر رجلا أنبل منه، فقد كان يقود السيارة مسرعاً ليرى وقع المفاجأة علينا كما قال لها.

وبعد أيام قليلة فوجئت بصالح زوجي السابق يطلبني على الهاتف.. استمعت إليه بهدوء وبعد أن قال كل ماعنده وأنه ينوي اعادتي إلى عصمته..

رددت عليه بالهدوء نفسه:

- آسفة يا صالح.. أنت إنسان ضعيف لا يستطيع حمايتي إبان الأزمات ولا يستطيع حتى أن يحمي نفسه..

أنا احتاج الرجل القوي.. الرجل الناضج.. صاحب الكملة الواحدة التي لا تتغير .. وهو لست أنت بكل تأكيد..

وابتسمت بكبرياء وأنا ألقي بسماعة الهاتف..

«تمت»

«الضحية»

«الضحية»

كنت طوال حياتي ضحية.. ضحية الظروف وضحية المجتمع وضحية أمي وأبي وحتى إخوتي.. وفي مراحلي الدراسية كنت ضحية للجميع!! مازالت ذاكرتي تستعيد ذلك الموقف الموجع من أيام دراستي وحتى هذه اللحظات.. ففي نهاية المرحلة الابتدائية اتفقت الطالبات على أن يعاقبن احدى المعلمات على قسوتها الشديدة.. فوضعن لها دبوساً أسفل المقعد.. وما أن جلست حتى صرخت بقوة.. ثم تحول الفصل إلى مجلس تحقيق انتهى بإجماع الطالبات على اتهامي بالجريمة.. نعم أنا الفتاة الضعيفة الرقيقة.. الحزينة دائماً.. الصامتة أبدا.. اتهموني رغم أنه لم تكن لي أدنى صلة بالموضوع لا من قريب ولا من بعيد.. أمسكت المعلمة بتلابيبي وهي تهزني بشدة.. لم أتكلم.. لم أنبس ببنت شفة.. ظللت على صمتي ودموعي تنثال على وجهي بغزارة..

ثم عوقبت على ذنب لم أرتكبه.. عوقبت من المعلمة ومن إدارة المدرسة ومن أمي وأبي.

ليس هذا هو الموقف الوحيد الذي أوضح لي موقفي من الحياة.. بل سبقته وتلته مواقف كثيرة موجعة ومعذبة، عرفت منها لماذا وكيف أصبحت شخصية مهزوزة ضعيفة وضحية لكل الناس.. فقد كانت أمي كذلك وأبي يستعبدها بإذلال مقيت.. كان يضربها ويهينها ويذلها وهي خانعة صامتة تسكب دموعها في صمت، وأحيانا تصيبها لحظة جنون فتحطم كل شيء حولها، تضربنا وتصرخ ثم تبكي بعنف.. وتعود إلى هدوئها وصمتها وذلها.. هكذا كانت الحياة تدور في بيتنا الصغير.. وهكذا خرجنا أنا وإخوتي إلى الدنيا.

أنا ضحية وأخي مدمن مخدرات وإخوتي الصغار مسيرون دائماً بلا رأي وبلا أي خيار..

حتى تزوج أبي بأخرى.. امرأة غير أمي، وتختلف عنها في كل شيء بدءاً بالدلال وانتهاء بالشخصية القوية المتفجرة..

عندها انهارت أمي وتحولت إلى كائن آخر.. تمشي بلا تفكير وتتحدث بلا صوت وتبكي بلا سبب.. وأبي لا يزورنا إلا نادراً.. وفي تلك الأحوال النادرة يجلس صامتا قرب الباب الخارجي كأي غريب لا يمت لنا بصلة قرابة.. فنشأ حاجز من الخوف والتباعد بيننا وبين أبي.. لا نحن قادرون على تخطيه ولا هو بقادر على اجتيازه.. وصرت ضحية الاثنين.. ضحية أنانية أبي وضحية انهيار أمي.. وتحملت المسئولية كاملة.. مسئولية أمي المنهارة ومسئولية غياب أبي ومسئولية انحراف أخي وحتى مسئولية اهدار طفولة إخوتي..

وفي يوم ممطر كئيب حضر أبي لزيارتنا.. في عينيه لمعة غريبة وفي ملامحه فرحة طفولية صاخبة.. أحسست بالخوف قبل أن أعرف ما يدور في عقل أبي.. ولكنه قال بعد فترة صمت طويلة:

- قريبا ستتزوجين يا تهاني.. وزوجك فيصل شاب مستقيم.. سيسعدك إن شاء الله.. نظرت إليه بذهول وقبل أن أنطق تابع قائلاً بتردد:

- إن زوجك هو شقيق زوجتي زينب.. وزواجك سيتم بعد شهر.. استعدي يا ابنتي وخرج بعد أن تركني غارقة في ذهولي.. كيف وأين ومتى؟ كيف أتزوج وأنا مازلت أدرس في المرحلة الثانوية وبيني وبين الزواج أميال من التفكير والعقد والدموع؟

كيف أتزوج من رجل لا أعرفه ولم أره يوما وأكثر من هذا انه شقيق

زوجة أبي؟ لماذ أتزوج فجأة وفي غضون أسابيع معدودة دون أن أعرف من هو زوجي وكيف يفكر وطريقته وأسلوبه في الحياة؟

لجأت إلى أمي.. أعلمتها الخبر بهدوء.. نظرت إلي بتساؤل ثم دمعت عيناها وبكت.. ولم آخذ منها سوى الدموع.. والمزيد من الدموع..

تزوجت فيصل باحساس الضحية وبشعور صارخ بأنني مظلومة والكل ظلمني حتى أقداري، تزوجته مرغمة مكبلة بقيود لا أستطيع لها فكاكا أولها أبي وليس آخرها زوجته المسيطرة..

لم يكن قاسيا كأبي ولم يكن رقيقا حالما كما تمنيت دائما أن يكون.. كان مجرد آلة صماء في يد شقيقته تحركه كيفما تشاء وأينما تشاء.. لا أنكر أنه يحبني، ولكن حبي له تلاشى وأنا أراه خاضعاً لشقيقته يخبرها بكل شيء.. عباراتنا على شفتيها، همساتنا تنطق بها عيناها، وحركاتنا وسكناتنا تدور داخل فلكها وتحت أوامرها الصارمة.. إذا ارادت له أن يحبني يحبني بشغف، وإذا ارادت له أن يكرهني كرهني بمقت..

طلقني مرة من أجل عينيها ثم أعادني لأنها فقط أرادت لي أن أعود.. واحساس الضحية داخلي يزداد ويتعاظم حتى قررت في لحظة أن أثور.. أن أتمرد.. لن أكون ضمن قطيع الرعاع الذي تحكمه هذه المرأة.. لن أكون كأبي وزوجي وأخي الذي انضم إلى لوائها أخيرا.. لن تحطمني كما حطمت أمي وسلبت منها كل شيء.. أولها الزوج ثم الأبناء وليس آخرها الحب والسعادة..

لن أكون ضحية لها كما كنت ضحية لظروفي من قبل.. سأستعيد شخصيتي وأقف لها ندا لند، وأنسحب من حياتها غير آسفة عليها..

استقبلت زوجي بثورة غريبة لم يعتدها مني.. صرخت في وجهه بقوة:

- فيصل.. طلقني.. والآن فورا..

بهت.. تلجلج في الكلام.. ضحكت بسخرية مرة وأنا أقول:

- أعرف أن الأمر ليس بيدك.. ولن أحرجك أكثر من هذا، هيا إلى زينب، فهي القادرة على اتخاذ القرار..

وما أن وقفنا أمامها بطلعتها المهيبة وشخصيتها القوية التي تبدو من خلال عينيها حتى أحسست بالانهيار الكامل.. وانني لست إلا ضعيفة منهارة كأمي..

حدجتني بنظرة نافذة وهي تقول:

- سمعت أن هناك مشكلة.. ما الأمر؟

قلت بسرعة أدهشتني:

- لا.. لاشيء..

وعاد إحساس الضحية يلفني من جديد.. وعرفت أنني لن أكون إلا ضحية.. ضحية للظروف وضحية المجتمع وضحية لأمي وأبي وحتى إخوتي..

«تمت»

«السراب»

«السراب»

(هل من نهاية؟)

ويصرخ صوت داخلي بذبذبات لا مرئية، تتوالد في ذاتي بلا انقطاع، يرهقني الانتظار، يبعثرني في انتظار الذي لا يجئ، ولن يجئ..حلمت به طفلة كطيف جاء من بلاد بعيدة.. بعيدة ليخطفني على حصانه الأبيض ويرحل.. أو على بساطه السحري ونهرب.. أو على أجنحة الخيال فنختفي.. مهماً كان أن اغادر قريتي لأحب، فالحب وقريتي لا يجتمعان.. فلا هي كانت تعترف به ولا هو كل يحفل بها، وهكذا كانت أحلامي بسيطة كالماء.. نقية كالزئبق، وكانت تتوسدني كل ليلة ليتمثل فتاي ممثلا معروفا كل مرة.. تأسرني ملامحه الفرعونية، وأذوب في سحر عينيه.. حتى رأيته أول مرة في حفل عرسي، دق قلبي بجنون وتفصد العرق من جسدي وجف ريقي.. أحقا هذا الذي أراه؟ حلما يتجسد واقعا، ماء عذب بعد توهان وجدب في صحرائي القاحلة.

من قضيت طفولتي ومراهقتي ابحث عنه في علم الغيب، أراه فجأة أمامي بكامل عنفوانه وجبروته، عذبا كان كالاوهام، صعبا كان كالأحلام، عاصفا كان كالأيام..التقت عيوننا لثانية واحدة كانت كافية لاجهاض فرحتي القادمة.. غادرني الأمل.. ليسكنني الألم.. ولهفة الترقب والانتظار.. أيمكن أن تكون النظرة الواحدة قاتلة لهذا الحد؟ أيمكن بنظرة واحدة نسف مستقبل بأكمله، تشريد أحلام على أرصفة الأوهام.. أيمكن بتلك النظرة إلغاء الماضي والحاضر والمستقبل.. أي جنون كنت أنحدر إليه وأي هاوية كانت تتلقفني.. وأي ضياع كان ينتظرني.

لا أنكر.. مجبرة على الزواج كنت.. ولا أعرف عن زوجي المستقبلي سوى ملامح صارمة وشت بها صورته.. ووظيفته المرموقة التي تلائم تطلعات أبي وإخوتي.. ولاشيء آخر.

رفضت الكثير ممن تقدموا لخطبتي.. بحثت بينهم طويلاً عن ملامحه.. عن نبضات قلبي المجنونة.. فأعود كسيرة القلب.. خالية الوفاض كل مرة بيد أن ضوءاً ما ينير أيامي.. بأن فارسا قادما لا محالة.. وان انتظاري له لن يكون هباءً..

عندما بدأت سنوات عمري تدق أبواب العنوسة.. دون بارقة من أمل أو اصداء تعكس الرجاء.. زادت الضغوط من حولي.. وازداد إلحاح أمي وبكاؤها ونظرات التوسل تطل من عيني شقيقتي الصغرى التي طالت خطوبتها في انتظار زواجي.. لمْ تجد عملية اقناعي.. فكان لابد أن يقول أبي كلمته ويحسم الأمر.. فتم عقد القِران..

لم أكن أعتقد.. ولا في أكثر أحلامي تفاؤلا انه سيأتي.. وفي ليلة زفافي بالذات.. هل كان ظهوره وبذلك الزمن المقترن بفرحة مؤودة يعلن لي التعاسة بصورة فجة.. وبأنني لن أذوق للسعادة طعما طوال حياتي، وبأن ثيابي البيضاء التي أرتديها ستكون كفني القادم، وزوجي القابع بجواري سيكون مقبرتي الآتية، والمحتفون بعرسي هم المعزون في وقت لاحق.. وقاعة العرس وضربات الدفوف هي نفسها سرداق العزاء وصوت مقرئ القرآن.. اختلطت المرئيات بنظري.. فلم أعد أرى سوى جنوني وعشقي ووهمي.. فغدوت مطلقة بعد شهور قليلة من زواجي.. دون أن ألامس أحلامي المستحيلة.. بقيت معلقة بين السماء والأرض.. فلا الأرض حملتني بتناقضاتي وتمردي.. ولا السماء ابتلعتني لأستريح.

أجلس بين صديقاتي الزوجات والأمهات.. محملة بعذاباتي، مسكونة بأحلامي الضائعة وقلقي الأبدي.. تقتلني نظراتهن المتسائلة.. متى؟ وأين؟ يضممن أولادهن إلى صدورهن المترعة بحنان الأمومة.. ولا أضم بين يدي سوى السراب!!

«تمت»

لقاء لا ينسى

لقاء لا ينسى

في قرية صغيرة.. بين أحضان الجبال الشاهقة تعرفت إليه.. كنت اصطاف مع أسرتي في تلك القرية الجميلة حينما رأيته لأول مرة.. كان شابا وسيما وسامة تبهر الأعين وتلفت إليه الأنظار. تقدم لأبي عارضا المساعدة بعد أن تعطلت بنا السيارة في طريق جبلي وعر، تحف به الخضرة من كل جانب.. ترجلنا جميعا من السيارة ليحاول ذلك الشاب الشهم إصلاحها.. رمقته بطرف عيني بإعجاب متزايد، فقد جمع بالإضافة لوسامته وشبابه مهارة في الأعمال اليدوية يندر وجودها.. كان لا ينظر نحونا أبدا وأبى منهمك معه في إصلاح السيارة.

التفتّ لأرى جمعنا قد تفرق.. ذهبت أمي وشقيقتاي الصغيرتان ليداعبا صغار القردة التي تنتشر حولنا في كل مكان، بينما انشغل شقيقاي الصغيران بجمع بعض الأعشاب والحشائش. نظرت إلى الهوة العميقة التي تقع أسفل الجبل.. أحسست بدوار وإعياء شديدين يلف كل أعضاء جسدي.. صرخت مرغمة.. التف الجميع حولي.. أبلغت أمي بصوت خافت بأنني لا أستطيع الوقوف وأشعر بغثيان شديد ودوار.

دست أمي في فمي قطعة حلوى، سرى مذاقها الرائع في كياني بقوة.. لكنني لم أتحسن.. أخبرت أمي بذلك بصوت متداع.

همست أمي لأبي بكلمات لم استطع سماعها وأن لم تفتني نظراتهما القلقة.

تناقش أبي وذلك الشاب الوسيم لفترة من الوقت، وبعد ذلك جاءني أبي هاتفا في حنان:

- ستذهبين الآن يا ندى إلى المستشفى مع هذا الشاب.. تسارعت نبضات قلبي.. لا أدري مرضا أم فرحا.. وهتفت مرغمة:

وحدي؟

أجابني برقة:

- بالطبع لا.. فقد استقر رأينا على أن أبقى أنا بجوار أمك وشقيقاتك والسيارة المعطلة وتذهبين أنت مع شقيقيكِ وهذا الرجل الشهم.

ثم أردف بعد هنيهة صمت:

- لا تخشى شيئا يا ندى انه شاب أصيل وابن عائلة، وقد كشفت لي هذه المصادفة أنه يمت بصلة قرابة لأحد أصدقائي في مدينتنا.

أحسست بالدوار مرة أخرى يقعدني عن القيام.. اسندتني أمي إلى ذراعها وأجلستني في سيارة ذلك الشاب الذي عرفت اسمه من مناداة أبي له: "عبدالله"..

همست لي أمي:

- لا تنسي.. أخبري الطبيبة بكل شيء.. اعلميها بأن لديك مرض السكر في الدم وانك تتعاطين حقنا يومية..

أوشكت على البكاء وأنا أجيب أمي بـ "نعم".. اتخذ الشاب مقعده خلف المقود وإلى جواره اصطف شقيقاي الصغيران اللذان لا يتعدى أكبرهما الثامنة من العمر.. وانطلقنا بسرعة لم أعهدها في أبي وصور الشجيرات الصغيرة والجبال الشاهقة تتابع في نظري بصورة لم تمكنني من رؤيتها على الوجه الصحيح..

سألني الشاب بصوت كأنه خرير المياه:

- هل أنت بخير؟

أجبت بصوت خافت وقلبي يهتف بجنون:

- نعم..

قال أخي الصغير: اتركها لا تسألها شيئا إنها دائما مريضة ومزعجة وفي البيت تضربنا دائما وتطردنا من حجرتها..

ضحك الشاب طويلا وأنا أشعر بقلبي يغوص داخلي وغضبي يشتعل من أخي الصغير الذي لا يفهم شيئا..

قال أخي الذي يكبره قليلا:

- أتصدق إنها ضربتني ذات يوم لأنني سكبت على شعرها الصابون.. ان شعرها طويل جداً ومزعج..

واستمر الشاب الوسيم يضحك.. وددت لو احطم أضراسه. هنا لم استطع السيطرة على مشاعري وصرخت غاضبة:

- اصمتا أيها الأحمقان وإلا اخبرت والدي.. ثم ان هذه ليست نكتا لتضحك منها أيها الشاب.. المفروض ألا تشجعهما على قلة الأدب.

تجمدت الابتسامة على شفتيه وتمتم بكلمة "آسف".. أشفقت عليه وعلى ملامحه الوادعة من كلماتي السامة ولكنني لم أتراجع..

بعد فترة من الصمت سألته بقلق:

- ألا يزال المستشفى بعيدا؟

قال بهدوء:

- خلال ربع ساعة سنصل إن شاء الله..

لكنني لم استطع التماسك أكثر واغمي علي وأنا في السيارة.. افقت وأنا في المستشفى وحولي الطبيب والممرضات والشاب الوسيم، وفي كل ذراع من ذراعي إبرة مغذية، ووجهي مكشوف وشعري ينساب على جوانب السرير بدون غطاء أو حجاب..

صدرت مني آهة فزع على الرغم مني.. اقترب مني الطبيب باسما وهو يقول:

- هل أفقت؟.. الحمد لله.. هل تشعرين بأنك الآن أحسن؟.

لقد كان شقيقك ذكيا فأخبرنا بما تعانين..

تلعثمت بالإجابة وأنا غارقة في حيائي، فهذا الشاب قد رآني مرأى العين.. ولم تخف عليه أي خافية.. لم استطع التفوه بكلمة لشدة الخجل..

قال الطبيب:

- الفضل لله ثم لهذا الشاب.. لقد حملك على ذراعيه فترة طويلة حينما لم يجد موقفا لسيارته..

اندفعت الدماء إلى وجهي وأنا اشعر بحرارتها اللاهبة، ولم استطع أن ارفع عيني بعد ذلك في العيون المتطلعة لي..غادر الجميع بعد ذلك الحجرة بعد أن قال الطبيب:

اطمئني ستغادرين المستشفى حالما ينتهي هذا المغذي..

اقترب مني الشاب الوسيم قائلا باستحياء:

- اعذريني لم استطع أمام حالتك إلا أن أعمل ما في وسعي لإنقاذك..

وحينما لمح ابتسامة الخجل على وجهي تابع بمرح:

- وقد كنت خفيفة للغاية ككيس من القش..

وحينما خرج الجميع تنهدت براحة كبيرة، ولكن شيئا ما بقي عالقا في أعماقي.. ربما نظرات هذا الشاب.. بريق عينيه وهو ينظر لي باعجاب.. أنا لا أنكر حمالي الباهر ولكن ترى هل أعجبته؟ وهل عرف من الطبيب بقصة مرضي؟ ترى أكانت نظراته تعبر عن حنان ورقة أم شفقة مرة..؟

خرجنا من المستشفى لنعود للمكان الذي تركنا فيه أهلي فوق الجبل..

كنا أقل مرحا وأكثر صمتا وقد توطن شيء ما في القلوب الصغيرة.. لم نعد كما كنا من قبل ابدا.. انشغل شقيقاي في الحديث مع بعضهما عن معالم الطريق.. انتهز هو الفرصة ووضع شريط كاسيت وانسابت أغنية حالمة.. من حنجرة احدى المطربات "أنت اللي بحبه أنا.. رد علي وقول" ..

تقوقعت في مقعدي وأنا ارتجف بعنف.. قال بصوت رقيق:

- ما رأيك في هذه الأغنية؟..

ثم سأل بنعومة: ألا تناسبك؟..

غرقت في الصمت وانفعالات شتى تجوب كياني وتحلق بي في عوالم فاتنة لم يطرقها سوانا، أصبحت السماء أكثر زرقة والطبيعة أشد اخضرارا والبلابل تغرد في كل مكان.. ثم انسابت الاغنية التالية أشد وقعا وأكثر تأثيرا من آلاف الكلمات "احبك ليه أنا ما دري.. ليه أهواك أنا ما دري" ..

طفرت عيناي دموعا لم أدر لأي سبب كانت.. أهي حب.. أم خوف.. أم استحالت اشفاقا مما هو آت؟

ومضى الوقت بسرعة غريبة وأنا غائبة عن كل ما حولي في دنيا أخرى وعالم آخر لم أعرفه من قبل.. قد سمعت كثيرا عن الحب من أحاديث صديقاتي ومغامراتهن.. لكنني لم أتصوره بهذا الطعم الحلو اللاذع، الذي يمتزج فيه كل شيء بأي شيء.. تمتزج فيه المرارة بالحلاوة بالخوف بالفرح بالدموع.. رباه ما هذه المشاعر العاصفة التي تمور داخل نفسي الحائرة وتعبث بقلبي وبنبضاته التي باتت غير منتظمة..

أيقظني صوته الدافئ وهو ينادي باسمي.. ازدادت نبضات قلبي حتى خلته سيقفز من مكانه سألني برقة:

- أيمكن.. أقصد أن نلتقي بعد ذلك؟..

وفي لحظات استبد بي غضب مفاجئ.. ماذا يظنني هذا المعتوه؟ لعبة بيديه يلهو بها ثم يحطمها.. أو فتاة من أولئك اللاهيات العابثات اللائي لا هم لهن سوى التنقل من شاب لآخر..

عزمت على أن اوقفه عند حده.. هتفت بحدة متجاهلة وجود شقيقيّ:

- ماذا تظنني أيها الشاب؟ آسفة فلست من أولئك..

انقبضت أساريره فجأة وقال بأسف حقيقي:

معذرة يا آنسة.. فأنا الذي يجب أن أتأسف..

انبرى شقيقي الأصغر قائلا:

- دعها ولا تتأسف لها.. إنها لا تستحق كل هذا التعب من أجلها، إنها تستحق الضرب

خُيل لي من صفحة وجهه الجانبية أنه يبتسم.. أحسست وكأن قلبي ينقبض فجأة وقد أدركت أخيرا بأن الحب قد تسلل إلى قلبي..

وصلنا إلى مكان أهلي.. استقبلتني أمي بحرارة وهي تسألني عن نتائج الفحوصات.. وانطلق أبي يتحدث مع الشاب حديثا طويلا، فهمت منه أن سيارتنا لن يتم إصلاحها بسهولة، وسيوصلنا هذا الشاب إلى مقر اقامتنا في الفندق على أن يعود هو وأبي لاحقا لسحب السيارة المعطلة..

ركبنا سيارة الشاب، ورغم اتساعها فقد بدت ضيقة وهي تقل العائلة بأسرها.. لم يتحدث احد طوال الطريق سوى أبي وهذا الشاب النبيل مما أتاح لي أن أعرف الكثير عن حياته وأهله وطموحاته..

مضت عطلتنا كأجمل ما تكون.. وهذا الشاب يرافقنا في تنقلاتنا الكثيرة دون أن يهمس لي ولو بكلمة..

وعرّفنا بأهله ذات يوم.. فأذهلتني بشاشتهم وحسن ضيافتهم، وكانوا مبهورين بي طوال فترة الضيافة..

لذلك لم أفاجأ حينما انتحى بي أبي جانبا ذات يوم وهو يقول:

- إن عبدالله شاب مهذب وخلوق، بالإضافة إلى انه يحمل مؤهلا عاليا.. فما رأيك؟

لقد تقدم عبدالله لطلب يدك..

لم أرد وإن علت حمرة الخجل خدي.. ولكنني بعد برهة قلت لأبي بهدوء:

- ولكن.. هل عرف بمرضي يا أبي؟

ابتسم أبي بحنان وهو يقول:

- انه يرغب بك كما أنت، ولا يهمه مرضك في قليل أو كثير..

سبحان الله يا ابنتي انه النصيب..

وخلال أيام بسيطة احتل خاتمه بنصري، وامتلأت احداقي بصورته وتربع على عرش قلبي بكل زواياه وأركانه.. انه حبيب العمر.. «عبدالله»..

«تمت»

سأبكي غدا

سأبكي غداً

في ليلة زفافي على ابنة عمي تراءت لي فكرة.. فكرة غريبة نسجت خيوطها حولي.. فلم استطع منها فكاكا.. فكرة تمكنت مني لدرجة السيطرة، فلم أتوانى عن تنفيذها، وبكل سهولة..

كانت الفكرة تلح علي إلحاحا غريبا.. بأن أهرب.. نعم..أهرب إلى أي مكان أو زمان لا توجد هي فيه..

لن أمضي في الخطأ أكثر من ذلك، لن أمضي في هذا الزواج، ولو كان الثمن هو الفضيحة، لن اظلمها معي، وهي الكائن الرقيق الحساس الذي لا يعرف الحزن أبدا.. تصورتها بخيالي.. «ابتسام» أبنة عمي بوجهها الناعم المستدير، وملامحها الرقيقة الشفافة التي تعكس كل ما يدور داخل نفسها الطاهرة، انها ملاك في صورة إنسان، ملاك جميل يمشي على الأرض..

من العبث أن اتصورها زوجتي في يوم ما.. أو حتى افكر مجرد تفكير في ان يجمعنا مكان ما.. لأنها لاتستحقني.. هذه هي الحقيقة.. الحقيقة البشعة التي حاولت مرارا اخفاءها عمن حولي من الناس.. انهم لا يعرفون شيئا.. كلهم.. حتى ابتسام، لايرون مني إلا الشاب الوسيم المثقف الحاصل على أكبر شهادة من أمريكا.. وعدا ذلك فهم لا يدركون أي شيء.

ابتسام.. تطاردني صورتها للمرة الثانية.. بل في كل لحظة، أنها حبي الحقيقي. أول حب تفتح عليه قلبي.. وآخر حب.. منذ طفولتنا كنا معا.. تعودت أن أراها أمامي في كل لحظة.. كنا نسكن بيتا واحدا.. وافترقنا في سن المراهقة، لكن حبي لم تخمد ناره، بل ازداد اوراه في البعد، تعلق قلبي بها.. حتى لم استطع الكتمان، فحادثتها عبر الهاتف في استحياء..

ولكن خوفي ذاب مع أول كلمة منها.. وعرفت أنها تبادلني حبا بحب، فنشأ حبنا قويا قاهرا.. حتى تخطيت الثانوية العامة بنجاح باهر.. فقرر الأهل بالاجماع أن أكمل دراستي الجامعية في أمريكا.. فهي المكان اللائق لنابغ مثلي.

بكت ابتسام حينما علمت الخبر.. قالت لي ودموعها تنسكب على خديها بحرارة:

- أخاف أن تطيب لك الإقامة هناك فلا تعود

بحماس أجبتها:

- صدقيني سأعود.. سأعود حتما..

وكأن حماستي قد سرت إليها.. فهتفت بقوة:

- ربما يتقدم لخطبتي أحد أثناء دراستك..

لم أدعها تكمل.. قاطعتها قائلا:

- سأضمن زواجنا قبل أن أذهب..

وفعلا تقدمت لخطبة ابتسام من عمي

رحب الجميع، وعلى رأسهم أبي، على أن يكون الزواج بعد عودتي من أمريكا.. رجوت والدي أن أتزوجها ثم نسافر معا.. ولكنه رفض بإصرار بحجة أننا مازلنا صغارا..

وسافرت في بحر من الدموع.. وما إن لسعتني نار الغربة، حتى تقوقعت على نفسي وأنا اجتر ذكراها..

ولكن الأيام أزالت الوحشة من نفسي.. فانخرطت في شلة من الأصدقاء، وما لبثت أن تعرفت إلى "جين" فتاة أمريكية، تدرس معي في الجامعة.. ارتبطت معها بعلاقة حب كما يفعل الكثير من أصدقائي.. وبالتالي قلت خطاباتي لابتسام "خطيبتي" وتباعدت وفقدت الكثير من وهجها وحرارتها ومصداقيتها..

كلا.. كنت حتى هذه اللحظة لم أنس ابتسام.. ولم أتوقف عن حبها..

ولكن وجود "جين" في حياتي كان كحبة المخدر التي اعمتني عن كل ما عداها حتى عن نفسي..

ووجدت نفسي بعد عامين فقط من حضوري من أمريكا متزوجاً من "جين" نعم.. تزوجتها على سنة اللّه ورسوله.. ولم أخبر أحداً بذلك.. تكتمت الخبر حتى عن أصدقائي في أمريكا..

وعشت معها لا يؤرق سعادتنا غير إلحاحها على إنجاب طفل مني.. تجاهلتها حتى غدا هذا الموضوع هو القاسم المشترك لجميع احاديثنا معا.. أو ربما يكاد يكون الموضوع الوحيد الذي نتحدث فيه على الدوام..

وفاجأتني ذات يوم بأنها قد عرضت نفسها على طبيب.. ثم أوحت لي بلباقة بأنه قد حان دوري لأذهب إلى طبيب للفحص..

وجدت نفسي في موقف صعب، فقد وضعت رجولتي في امتحان خطير، تأباه كرامتي كشرقي أولا وأخيرا..

وما ان اجريت الفحوصات الاعتيادية حتى كانت المفاجأة..

أنا عقيم ومن الاستحالة أن أنجب..

سألت الطبيب وكل جزء مني يتداعى بصمت:

- أليس هناك من أمل.. بصيص ضوء.. ولو كان بعيدا؟.

هز الطبيب رأسه بقسوة أطاحت بما تبقى من حبي للحياة وأملي بها..

طلقت "جين" بارادتي رافضاً كل توسلاتها للبقاء معي.. قلت لها بهدوء وداخلي يغلي كالبركان:

أنت أردت طفلا وأنا لا استطيع أن أحقق لك ذلك.. أملي أن تجدي من يستحقك في المستقبل.

انسحبت من حياتها بصمت كما دخلتها بصمت.. ورغم كل شيء.. وكل السنوات الست التي انفقتها في الغربة وحصولي على الشهادة

الكبرى. عدت إلى الوطن مثقلا بالحزن والهموم..

رغم مظاهر الفرحة والاحتفاء بعودتي، وتفجر حبي لابتسام حينما رأيتها وقد غدت كالوردة اليانعة جمالا وتفتحا وحيوية.. بيد أني أدرك في أعماقي أنني لا استحقها، هي ترغب فيمن يسعدها ويملأ عليها البيت بالبنين والبنات، لن أشقيها معي باللهاث وراء حلم مستحيل، لن أعذبها بحرمانها من طفل يملأ عليها حياتها وتحقق به كينونتها، لن أظلمها أكثر مما ظلمتها، ولكنني كنت أجبن من أن أصارحها بالحقيقة.. أجبن من أن أواجه مجتمعي بهذا القدر المكتوب.. وأجبن من أن أتقبله..

ووجدت نفسي انقاد لأبي بلا رأي ولا تفكير وأسير في إجراءات زواجي من ابتسام، وكأنني لم أفق بعد من ألم الصدمة..

ومضى كل شيء بسرعة.. حتى ليلة زواجي.. في تلك الليلة المميزة.. وكل الأشياء ترتدي ثياب الفرح والدنيا ترتدي ثوباً من الأضواء والمسرات..

تملكتني فكرة الهرب..الهرب بعيدا لأي مكان وزمان.. فلن تسامحني ابتسام حينما أتزوجها زورا وخداعا، ولن أرضى على نفسي وكرامتي أن أصارحها بأنني عقيم..

ففي مجتمع كمجتمعي لا مكان فيه لمن حرم من إنجاب الأطفال.. فالكل يتحدث والكل يقترح والكل له الحق في ابداء رأيه في حياتك وبالطريقة التي يرغبها.. لأبتعد وصورتي المرموقة ماثلة في أعماقها لاتهتز.. ولأكون رمزا لحب لم ينته.. ولن ينتهي..

كتبت لها ورقة بيضاء تحمل الكلمات التالية:

("الوداع يا أجمل وأحب مخلوق عرفته في حياتي.. لن نكون لبعضنا.. هذا قدرنا.. وسامحيني يا حبي الوحيد).. وهربت.. عدت لأمريكا..عدت لـ "جين" مرة اخرى..

«تمت»

هاربة من الماضي

هاربة من الماضي

في الخامسة من عمري أو ربما في السادسة لا أكثر.. فقدت أمي.. لم أفقدها بالموت، بل فقدتها بالطلاق، وما زالت الذكرى الموجعة لا تبارح مخيلتي، وأنا أبكي أمام حجرتها الخالية.. أبكي فقدانها، وأبكي شوقا لها والتماسا لحنانها.. أبكي بقوة وحرارة وأنا اسأل.. أين أمي؟ ولا تجد صرخاتي صدى من المحيطين بي سوى محاولة اشغالي بأي عمل لأنسى.. ولا أنسى.. وهل هناك من يستطيع نسيان حياته.. نبع الحنان وركن الأمان والاحتماء من غدر الزمان..

كل ذلك تلاشى بالنسبة لي، أصبحت فجأة بلا حدود ولا أقنعة ولا حوائط.. لا شيء يحدني ولا شيء يسترني.. ضياع شامل يكتنف عالمي، حتى غدوت كنبتة صغيرة جافة وسط صحراء مترامية الأطراف تحيط بها العواصف من كل جانب..

قاسيت الأمرّين؛ من حرماني من حنان أمي ووجودي وسط عائلة لا تعرف معنى الرحمة والشفقة، ويحاولون الانتقام من أمي في شخصي الضعيف.. طفلة صغيرة بلا سند ولا حماية.. ذقت مرارة الظلم وعذاب المحاباة ودموع الأيتام.. نشأت وترعرعت وسط أجواء مثقلة بأنفاس الغيرة والحقد.. مشحونة بالقلق والتوتر وهبوط متواتر في مشاعري وإحساسي قادني إلى البرود.. والبرود التام تجاه كل شيء وأي شيء.. لا شيء يثيرني.. لا شيء يحركني.. مما أدى بي إلى الاصابة بمرض غريب، وأنا في مرحلة المراهقة..

إغماء نادر، حار الأطباء في تفسيره.. كنت أشعر بضيق شديد في التنفس، وكأن أيدي قوية تغتالني ثم أغيب عن الوعي غير عابئة بشيء..

لم يستطع العديد من الأطباء الذين عرض عليهم أبي حالتي أن يدلوا بتفسير معين أو مرض محدد، ولم يكن لديهم علاج لحالتي سوى الأدوية المقوية والفيتامينات..

حتى سمعت ذات يوم حديثا بين أبي وعمتي.. كانت عمتي تقول له بإصرار:

- صدقني يا أخي.. علاج البنت بزواجها.. أن حصة مكتملة الصحة والعافية ولا ينقصها سوى الزواج..

رد عليها أبي بارتياح واضح

- إنها ما زالت في السادسة عشرة.. ثم من هو الزوج المنشود.. فحتى الآن لم يتقدم لها أي رجل للزواج..

أجابت بثقة:

- الزوج موجود.. انه أبني عمر..

جاءني صوت أبي ضعيفا متهافتا وهو يقول:

- ولكن.. إن عمر لا وظيفة له ثم إنه قد خرج من السجن حديثا و..

قاطعته بصوتها الأجش:

- لن نجد أفضل منه زوجا لها، يكفي أن والدتها..

ولم استمع لبقية كلماتها، فقد غبت عن الوعي.. عاودتني حالة الاغماء العجيبة في تلك اللحظة، وكأنما لتحميني مما يؤذيني سماعه ويعذبني معرفته..

وأفقت لنفسي هذه المرة وأنا مخطوبة لعمر.. ابن عمتي الشاب السكير العربيد، صاحب السوابق الذي لم يدع خطيئة على وجه الأرض دون أن يرتكبها..

حاولت إبلاغ أبي برفضي، لكن محاولاتي ضاعت وسط زخم

الاستعدادات للزواج المرتقب.

أحسست بأنني ضعيفة هشة دون أسلحة ولا حماية من أي نوع.. تلفت حولي أبحث عن صدر حنون، يخفيني عن التطلع لمصير أرهب مجرد تصوره.. تلفت أبحث عن كلمة حنان ضاعت في أبخرة الحقد والغيرة..

بحثت عن دموع تجاوب دموعي.. عن جدار اتكئ عليه خلال معركتي مع الحياة..

لكن الزمن خذلني.. فواجهت حياتي المقبلة وحيدة إلا من حزني.. خائفة إلا من أمان مزيف يطرق أبوابي..

تزوجته وأمل بعيد يداعب مخيلتي، وحلم ما زال رغم كل شيء يحتل مساحات شاسعة من تفكيري.. فربما يتغير عمر بعد الزواج، وربما يسمح لي بزيارة أمي ورؤيتها و..و..

حتى فوجئت به صباح ليلة الزفاف يقول لي بنبرة آمرة:

- أنسي ان لك أماً على وجه الأرض.. أفهمتي؟

سألته وكل جزء من جسدي يتداعى بصمت:

- ولماذا؟

وبقي سؤالي معلقا دون إجابة.. حائرا يطرق رأسي آلاف المرات بعذاب يفوق احتمال البشر..

ماذا فعلت أمي ليقف منها الجميع هذا الموقف البشع.. ولأول مرة اسأل نفسي.. لماذا طلقها أبي؟ ولماذا يزج بي أبي في هذا الزواج غير المتكافئ؟.. إذ لم تكن فعلة أمي فوق قدرة الناس وطاقاتهم على التسامح والغفران..

لم يكن تساؤلي هو بداية عذابي، بل بدأ زوجي معي سلسلة أخرى من

العذاب، كان يبالغ في إيلامي وتجريحي.. وحينما أتضجر أو أشكو يصب علي سيلاً من الإهانات تفوق كل حد وتعلو على أي صبر..

لكنني ابتلع دموعي في صمت، وأتعذب في صمت، وحين قررت يوما أن أشكو لعمتي، فاجأتني بقولها:

- مثلك لا يشكو.. مثلك يصبر ويتحمل..

ثم أخذت تدعو على أمي وتكيل لها الشتائم.. سألتها برفق:

- عمتي.. لماذا طلق أبي أمي؟

أشاحت بوجهها وهي تقول:

- أنت صغيرة لا شأن لك بهذه الأمور..

وانسابت دموعي لتغرق وجهي، وتبلل ثيابي.. ولماذا الآن فقط أصبحت صغيرة ياعمتي.. لماذا لم تدركي صغر سني قبل أن تقحميني في دوامة التفكير والعذاب بزواجي من ابنك؟

سامحك الله يا عمتي..

ولم اسألها عن شيء بعد ذلك ولا لمحت لها بشيء.. اكتفيت بملامح اليأس المرتسمة على وجهي، والحزن الناطق في العيون، وحالات الاغماء التي تعاودني بين الفينة والأخرى، أكثر مما كانت عليه قبل زواجي..

وبعد شهر فقط من زواجي دخل زوجي السجن في قضية مخدرات، وعدت ذليلة إلى بيت أبي الذي كرهته من أعماقي، كما لم أكره شيئا في حياتي..

وبدأت الهمسات تدور حولي وتعالت الهمسات إلى أصوات حادة تصرخ في أذني.. وحيدة وجميلة وزوجها غائب في السجن، وماضي أمها لا يشفع لها.. يجب تشديد الرقابة.. لا خروج إلا بإذن ولا مكالمة إلا بإستئذان.. وحتى الكلام ممنوع..

دارت الدنيا من حولي وعاودني الإحساس الشديد بالضيق في صدري، وازدادت عدد مرات غيابي عن الوعي، حتى جاوزت الحد المعقول.. ادخلت عندها المستشفى، وسلسلة طويلة من الفحوصات والتحاليل، لينتهي بي الأمر عند الطبيب النفسي.. أذهلني مرآه للمرة الأولى.. كان شابا وسيما لم تقع عيناي على شبيه له من قبل وحنونا إلى درجة لا تصدق..

سألني برقة:

- جميلة وحزينة.. لماذا..؟

نبض قلبي بعنف، ووجدت نفسي أحكي له كل شيء عن مأساتي ومع كل كلمة دمعة.. ومع كل دمعة آهة.. وقطرة جديدة تزرع في قلبي بذرة حب..

تجاوب قلبانا في انسجام غريب غير مألوف.. فوجدت نفسي أطلب الطلاق من زوجي، يؤازرني أبي ومن راءه الطبيب النفسي دون أن يعلم أحد عن أمري شيئا..

وما أن حصلت على الطلاق، حتى هربت معه.. مع الطبيب.. وتزوجنا بعيدا عن الأعين.. وبعيدا عن كل رابطة تربطني بذلك الماضي الكئيب الذي أحاول نسيانه..

ووجدت السعادة معه.. ولم أحاول البحث عن أمي أو نبش ماضيها الذي لا أعرفه.. يكفيني ما أسمعه من الناس وكلامهم المكرر"الماضي يعيد نفسه والبنت ترث أمها"

وأصم آذاني عن كل شيء إلا سعادتي مع زوجي..

«تمت»

حلم مجنون

حلم مجنون

نظرت اليه للمرة العاشرة.. بل ربما للمرة الألف.. انه صورة منه.. بالضبط.. العينان نفسهما.. الأنف.. والشفتان.. الهيئة نفسها.. الشامة السوداء نفسها التي تزين وجهه الأسمر.. كدت أصرخ: خالد..

ولكن لا.. انه رجل آخر.. تعود نظراتي خائبة كسيرة.. انكس عيني إلى الأرض، وقلبي يتمزق.. لا.. ليس قلبي.. بل كل جزء في روحي يتمزق.. وأموت.. أموت معه..

تسألني صديقتي وعلامات الحيرة تبدو جليّة على وجهها.. ما بك؟

وأشيح بوجهي قبل أن تلمح دموعي.. دموعي التي لم أذرفها بعد موته.. دموعي التي تجمدت وقت أن سمعت الخبر الصاعق.. فلم أبك ابدا..

بدأت قصة حبي له وأنا في السادسة عشرة من عمري.. كان ابن خالتي.. الشاب الخلوق المهذب الخجول.. وكنت أسمع دائما أمي وخالتي وهما تتفقان على زواجنا في المستقبل.. فأحببته..

أحببته حتى الثمالة.. بعينيه العميقتين ووجهه الأسمر ذي الشامة السوداء وكلماته الهادئة الخجولة..

أصبحت أنظر إلى مستقبلي بعينيه.. وأستمد بقائي من بقائه.. وأرى أحلامي كلها موسومة في عينيه الوادعتين..

أحبني أكثر من نفسه.. وأحببته أكثر من الحياة.. فأصبح حبنا مضرب الأمثال في القوة والروعة والجمال.. ودعته في سفره للخارج للدراسة ودموعي تسبقني.. ولهفتي تسبق كلماتي..:

- خالد.. لا تنساني هناك

وجاءتني كلماته مغلفة بدموعه:

- لن أنساك ما حييت..

ورحل وسط ضباب دموعي.. وكلماته تسكن قلبي.. وصورته لا تفارق خيالي..

ومرت الأشهر وأنا انتظره.. بشوق.. بلهفة.. وبحب.. تصلني خطاباته الواحد تلو الآخر، ولكنها لا تطفئ ظمأي إليه.. ولا تبدد شيئاً من حرارة الأشواق..

ثم سمعت الخبر المفجع.. لقد مات.. مات خالد في حادث سيارة.. في الخارج..

صرخت ملتاعة:

- لا.. لا.. لم يمت.. خالد لم يمت..

ولم أبك عليه.. لم أذرف دمعة واحدة.. بقيت واجمة أحدق فيمن حولي بذهول، وشفتاي منفرجتان بغير صوت.. وأمشي.. وأرى.. وأنام.. ولا شيء.. مازلت غير مصدقة، أذهب إلى خالتي وأجدها تبكي.. تبكي بحرقة وهي تضمني.. أرفض بكاءها.. أصرخ بها:

- خالتي أرجوك.. كفى بكاءً.. خالد لم يمت...

تنظر لي بدهشة..

اعيد كلماتي.. خالد يا خالتي لم يمت.. وسيعود..

تتحول نظراتها الدامعة إلى نظرة مشفقة حزينة تمسحني في حنان، ثم تضمني إلى صدرها وتبكي مرة أخرى..

أرى حجرته الخاوية وثيابه المجللة بالسواد.. لا يا خالتي خالد سيعود.. أزيلوا السواد.. أعيدوا كل شيء إلى مكانه.. خالد سيعود..

وأصرخ.. وأصرخ.. وأصرخ.. وتمتد صرخاتي كأيد تغتالني وأغيب عن الوعي.. ولكن أبدا لم أبك..

فقط عندما رأيته.. بكيت..

أحسست بأن خالد لن يعود.. وأنه مجرد صورة مقتولة في خيالي.. وأنه هو الأصل.. في اليوم التالي حاولت أن أعرف كل شيء عنه.. اسمه.. عمله.. أين يسكن..؟

وأفاجأ.. اسمه فهد.. يسكن في حينا نفسه.. انهم الجيران الجدد الذين سكنوا في حينا أخيرا..

وبدأ قلبي يتعلق به رغما عني.. نظراته الحزينة.. ووجهه الأسمر الجذاب.. قامته.. كل شيء فيه يذكرني بخالد.. أنني أتعذب..

وأعود لبيتي خائبة حزينة.. وقلبي يتمزق.. فهذا الشبه المستحيل يعذبني.. يؤرقني.. يحيل حياتي إلى قطعة من جحيم.. يأتيني صوت المطرب في الراديو:

"يا شبيه صويحبي حسبي عليك.. كل ما ناظرت عينك شفت ذاك في سلامك في كلامك في حلاك.. ليتهم سموك بأسمه واستريح"

تندهش شقيقتي لوقوفي الدائم أمام النافذة، أتطلع إلى ذلك البيت المقابل ونظراتي المعلقة بذلك الباب الكبير.. أتهرب منها ومن أسئلتها..

أسير إلى قدري.. احاول أن أتعرف على فهد.. أضرب بمبادئي وقيمي عرض الحائط.. أقلب المفاهيم الشرقية السائدة.. لن أستطيع الصبر أكثر من ذلك.. وكنت أنا البادئة..

صدمتي كانت مضاعفة.. فقد رفضني.. رفضني بهدوء.. قال لي بصوت متعجرف:

آسف.. أنا مرتبط..!

لم أيأس.. حاولت مرة أخرى.. حفظت مواعيده عن ظهر قلب.. عرفت موعد ذهابه وايابه من وإلى البيت.. أراقبه في كل خطوة.. ولكنه رفضني بقسوة..

أنه لا يفهم.. وأنا لا أستطيع أن أفهمه.. وماذا أقول له.. وكيف أواجهه بالصورة التي لا تبرح خيالي..

وذات ليلة فاض فيها حزني إلى حد الوجع.. وامتلأت نفسي بصديد الأحزان، وجدت نفسي أهاتفه رغما عني وأصرخ فيه قائلة:

- أنا أحبك.. أحبك يا فهد.. أرجوك أفهمني..

ساد صمت لم أسمع فيه سوى تردد أنفاسه.. تكلم أخيرا بصوت يقطر دهشة:

- بالتأكيد أنت لست فتاة.. من أولئك!!

أولئك.. يقصد؟؟؟.. دوت هذه الكلمة في أذني لتخترق أعماقي وتدميني.. وتدميني حتى النخاع..

ومن قال له بأنني ألاحقه لأنني فتاة منحلة..

أنه لا يعرف بأنه صورة منه.. من الآخر.. من الرجل الذي يسكن أعماقي ويعذبني برحيله..

لا يعرف بأنه الأمل الذي روى قلبي بأنه موجود.. موجود ولم يمت..

انه لا يعرف بأنه أحيا في داخلي كل الحنين وكل الحب وكل الشوق..

أنني أحب خالد في صورته..

همست له:

- لست من أولئك.. ولكنني أحبك..

وأغلق السماعة في وجهي.. أغلقها غير عابئ بقلبي الذي تحطم وروحي التي تئن من وطأة الأحزان..

صرخت من بين دموعي.. يجب أن أصل إليه.. بأية طريقة وبأي سبيل، حتى ولو فعلت المستحيل..

ولم أنم تلك الليلة.. ليس لكرامتي التي جرحت.. بل تفكيراً في طريق

يجمعني به..

يجب ان يراني فهد.. فربما لو رآني وقع في حبي..

وفعلا نفذت كل ما عقدت عليه العزم.. ورآني فهد.. رآني وجها لوجه.. لم يتغير فيه شيء سوى نظرة احتقار سكنت عينيه..

ومضيت انتظره قرب الهاتف وآمالي تذوى كأوراق النبات.. ولكن بلا أمل..

تواجهني صورتي الكئيبة المنعكسة في مرآة حجرتي.. أراها تهزأ بي.. وتسخر مني.. تحتقرني..

واسأل نفسي بمرارة.. هل أنا من أولئك النوع من الفتيات.. كلا.. ليس حبي من هذا النوع.. انما هو امتداد لحب كبير يغمر قلبي ويفيض به.. ولكن من يفهم؟

صرخت شقيقتي بوجهي ذات يوم.. ستفضحينا.. من يفهم مآساتك غيرنا؟

عندها فقط صحوت من كابوسي المريع.. ورأيت الدنيا كما لم أرها من قبل.. وكأنني كنت في غيبوبة.. وكأنني كنت في حلم مجنون.. ماذا دهاني؟

وكيف أربط الحب الصادق الجميل بحب مزيف خال من كل شيء حقيقي. كيف.. كيف لم أنتبه يوما انه لم يشبه خالد سوى بالشكل الخارجي فقط.. أما الداخل فان هوة شاسعة تفصل بينهما.. بطيبة خالد وقسوته.. بحنان خالد وجفائه.. بحبه.. بكرمه.. بأخلاقه.. كيف.. كيف؟

وغامت الدنيا بعيني، وبكيت كما لم أبك من قبل.. انه هو الأصل.. هو الأصل دائما.. وفهد مجرد صورة مشوهة منه..

انحدرت دموعي لتغسل ما تبقى من حبه في قلبي.. بكيت بشدة وكأن خالد مات البارحة وليس من سنوات مضت.. بكيت وأنا أودع الماضي وأفتح صفحة جديدة مع الحاضر.. كلها حب.. وسعادة.. وكبرياء.. وأرسم على شفتي أجمل ابتسامة.. مازلت شابة.. والأمل والحب في المستقبل.. وليس في الماضي!!

«تمت»

لن يعيش لك طفل

لن يعيش لك طفل

ضباب ودموع وأصوات كلاب تنبح بقوة وأنا أركض وأركض.. وأركض ثم اسقط في هاوية بلا قاع..

حلم يطارده حلم ثم حلم.. وأصحو بفزع وعيناي مبللتان بالدموع.. ثم ماذا.. وأسئلة يتيمة بلا جواب..

سألت أمي وشيء ما يتفتت داخل صدري ربما هي بقايا أضلعي:

- أمي.. لمَ لا أنساها؟

نظرت لي أمي بغتة ثم غشت عينيها سحابة دمع لأجهش ببكاء مرير وأنا أهمس بصوت متقطع:

- قد حلمت البارحة بأنني أرضعها فتدفق الحليب من صدري مدرارا..

- أمي هل سأنساها؟.. وكيف؟

جاءني صوت أمي من بعيد محطماً وقاسياً.. لا احد ينسى ضناه..

ابدا.. ابدا يا أمي.. ولو بعد مئة عام.. أليس هناك من أمل ولو ضئيل بأن يغادرني هذا الألم الممض الموجع الذي يضرب جذوره في أعماقي متفتقا عن عذاب أشد ألما وضراوة حتى وكأنني أشعر بروحي وهي تتسلل رويدا رويدا خارج نفسي.. ألن تغادرني حرقة النفس واكتواء الضلوع، وقلبي الذي ينزف دما.. والمرارة العالقة بفمي.. منذ غادرتني حبيبتي الوحيدة..

ألم لا يوصف ولا يطاق فكيف تشعر أية أم حين تحلم بأن وحيدتها في احضانها تمتص الحب والحنان مع الحليب ثم تصحو على واقع بشع بفقدانها، ولا تضم بين يديها سوى السراب، تملأ حدقتي عيني بهيئتها الحبيبة.. عينان واسعتان تفيضان مرحا وحيوية وبراءة تلون الأحداق،

وشعر خفيف متطاير يعلو هامتها..

هل كانت تشبهني أم تشبهه..؟ ألا يزال يحيا في أعماقي كما كان سابقا..؟ كلا..

صرخة رفض تدوي بقوة.. فلا شيء كالسابق.. والماضي لا يعود..

قصة حب سريعة انتهت إلى زواج.. أحببته بعد الزواج بكل طاقتي على الحب.. بدأ زواجنا بسعادة عاصفة ليس لها مثيل..

لكن الأيام تمر سراعا والأشهر تتوالى والسؤال المرتسم في الأعين الحائرة التي ترمقنا ازداد حدة ونزل إلى أرض الواقع وواجهتها به الوجوه من حولنا.. متى وأين الحمل؟.. أين الطفل المنتظر؟..

زوجي واجه الأمر بضحكة كبيرة أودعها قلقه وهو يقول بلا مبالاة:

- كل شيء مرهون بوقته.. لسنا متعجلين على شيء..

لكن السؤال بقي هاجسا في أعماقي.. لم يمر من خلالي خارجا كما حدث مع زوجي، بل استقر في نفسي وانعكس صداه اسئلة بلا جواب..

عرضت نفسي سرا على طبيبة ما لبثت أن طمأنتني بأن كل شيء على ما يرام..

بيد أنني لم اطمئن بل ازداد أوار المعركة في أعماقي لتتراجع سعادتي التي بنيتها بيدي وتبقى نفسي معلقة بطفل هو شبح سعادتي المفقود..

لمس زوجي ما طرأ على من تغير.. كان سؤالا.. انفجرت بعده باكية.. ناقشته.. أوضحت له كل شيء ثم طلبت منه أن يكشف بدوره لدى طبيب..

كانت تعاستي مضاعفة حين اكتشفت أن زوجي أيضاً لا مانع لديه من الإنجاب وأن كل شيء بيد اللّه.. ونعم باللّه..

لكن أهل زوجي.. وأمي.. وشقيقاتي وصديقاتي كيف يقتنعن بما حاولت أن أقنع نفسي به.. انهن لا يفهمن سوى شيء واحد.. أن تحمل

المرأة بعد زواجها وإلا اتهمت بأنها عاقر.. ولا خيار آخر..

تلاشت سعادتي كضباب سحقته الشمس وأنا أحاول البحث عن حل وسط الدوامة التي وجدت نفسي فيها.

بدأت رحلتي بين الأطباء والمستشفيات العامة والخاصة والشيوخ ومحترفي طب الأعشاب والشعوذة.. وما أن يطرق أذني اسم جديد لهؤلاء حتى أعدو اليه غير عابئة بأحد..

أخيرا دلوني عليها.. مداوية أو طبيبة أعشاب أو مشعوذة لا أدري.. كل ما قيل لي عنها أنها بارعة في مداواة العقم وكل من تزورها تحمل.. طال الزمان أم قصر..

أسرعت ولهفتي تسبقني وضحكات زوجي تطاردني..

نظرت إلي بتركيز ثم همست بصوت متداعٍ..

- لن يعيش لك طفل..

قاطعتها بذهول:

- لا أطفال لي!!

تجعد وجهها بطريقة مخيفة وهي تهمس:

- أعرف.. ولكن لن يعيش لك طفل..

امتلأت عيناي بالدموع وأنا أقول:

- والحمل؟

أدارت ظهرها قائلة:

- الأفضل ألا تحملي..

غادرتها وركبتاي تعجزان عن حملي.. يأس رهيب دب في أوصالي فأعجزني حتى عن المشي بسهولة.. سألني زوجي.. وسخرية كبرى تملأ وجهه.. أشحت بوجهي وأنا أشعر بدوار شديد وغثيان يملأ جوفي..

المفاجأة كانت أنني حامل.. وفي الشهر الثاني..

خررت ساجدة لربي وأنا أبكي من فرط السعادة.. امتلأ بيتي بالمهنئات.. أهداني زوجي عقدا ماسيا رائعا، وأهديته سعادة كان قد نسي طعمها منذ زمن.. عادت حياتنا إلى استقرارها وهدوئها وأضواء من السعادة الخاطفة تنيرها بين وقت وآخر..

في خضم هذه السعادة نسيت تلك المداوية العجوز وتلاشت كل كلمة نطقت بها حتى لم أعد اذكرها بتاتا.

واطلت إلى الدنيا "إيمان".. طفلتي الحلوة البريئة.. زغردت حياتنا فرحا وحبورا..

امتلأت نفسي بالغبطة والرضا بشكل لم أعرفه، وخشيت أن أحسد نفسي عليه..

ابتعت لها أثوابا رائعة والعابا نادرة من كل بلاد الدنيا.. أحببتها حبا آسرا لم أحبه في حياتي لبشر..

مضيت ارضعها من صدري حليبا وحنانا وأملا.. وفجأة.. وفي لحظة خاطفة وأنا أتسوق برفقتها في السوق الكبير.. فقدتها.. نعم هكذا فجأة.. كانت تبلغ عاما ونيفا من عمرها وتلهو بين أقدامي.. التفت فلم اجدها.. بحثت عنها في أرجاء المعرض الكبير يرافقني البائع فلم نجد لها أثرا.. صرخت هلعا وأنا أركض كالملدوغة في أنحاء السوق والكل يركض ورائي ككلاب مسعورة.. لكن ابنتي اختفت وكأن الأرض انشقت وابتلعتها.. لا أثر.. لا شيء.. سوى فردة واحدة من حذائها الوردي الصغير وجدته حيث كنت في المعرض الكبير..

صرخت.. بكيت.. مزقت شعري بجنون ثم غبت عن الوعي..

وأفقت على واقع مرعب.. مخيف.. مقفر كالقبر.. ابنتي اختفت

وذهبت بدون عـودة.. نداءات الإعـلام لم تجـد، وبحث الشـرطة والأهل والمعارف لم يسفر عن نتيجة.. ونفسي تتصدع وإحساس مخيف بقرب نهايتي يدنو مني حتي يوشك على خنقي واصرخ.. واصرخ..

عشت على المهدئات، أصحو بين الفترة والأخرى في ذهول وضياع وألم لا يوصف.. ثم ضياع مرة أخرى..

وفي قمة أزمتي وتمزقي وانهياري طلقني زوجي.. بعد أن حمّلني مسئولية ضياع ابنتي..

تفاقمت أزمتي حتى وصلت حدودها القصوى، فرقدت في المستشفى طريحة الانهيار العصبي شهورا طويلة لأخرج برفقة أمي خائرة القوى.. مضعضعة الحواس.. ضعيفة.. منهارة.. لكن الأمل لا يزال يتشبث بأعماقي رافضا الموت..

قلت لأمي ونحن في طريقنا إلى البيت:

ألم تعد يا أمي إلى البيت؟..

أجابتني أمي بعاصفة من الدموع.. لكن دموعي قد جفت، فاكتفيت بسعال حاد كاد يمزق صدري..

فوجئت عندما لم أجد سوى ثيابي.. لم تحمل لي أمي ثياب الصغيرة وألعابها.. تريدني أن أنسى.. وكيف أنسى يا أمي.. والحليب يملأ صدري.. ويفيض به..

حينها تذكرت.. بريقا ساطعا اضاء ذاكرتي بوهج لا مثيل له.. تلك المرأة العجوز.. من تنبأت لي يوما بأن اطفالي لن يعيشوا.. ترى هل إيمان قد ماتت.. هل قتلها أحد؟

أسرعت إليها أجر نفسي جرا.. قلت لها بصوت مثقل بالبكاء:

- سيدتي.. هل إيمان ماتت أم لا تزال على قيد الحياة؟

نظرت إلي بتركيز شديد ثم هتفت:

- من أنت؟

اجبتها بصوت يائس:

- أنا من لن يعيش لها طفل.. أتذكريني..؟

رمشت بعينيها فجأة ثم همست بنفس الصوت المميز:

- لقد كبرت كثيرا يا أبنتي وتغيرت كثيرا.. هل فقدت طفلا؟

هنا لم أتمالك نفسي أكثر وأجهشت بالبكاء في حرقة ومرارة.. مضى وقت وطويل والحجرة غارقة في الصمت لا يقطعه سوى بكائي المر..

سألتها ودموعي لا تزال تهطل بغزارة:

- سأدفع لك كل ما تريدين.. فقط اخبريني هل ماتت إيمان أم لا تزال على قيد الحياة؟

أشاحت بوجهها قائلة:

- اخبرتك سابقا.. لن يعيش لك طفل يا ابنتي..

- وإيمان؟

- لن يعيش لك طفل..

وبكاء ودموع وضباب كثيف بلا انقطاع..

«تمت»

أطياف من الأحلام

اصطف إلى جوارهن بوجل.. ترى ماذا سيحدث لي في اللحظة الأتية:

أفكاري تترى.. هل سأتشنج أم سيغمى علي.. أم سأصرخ بكل قواي دونما يستطيع كائن ما ان يحد من صراخي؟

عرق ودموع وأفكار تصعب السيطرة عليها.. حجابي الأسود ملتصق بظهري وعنقي بسيل من العرق.. ورائحة حناء قديمة تفوح من شعري.. أشعر بها تقتحم أنفي بقوة وكأنها قد وضعت للتو.. ضربات قلبي تتسارع.. تنفسي يزداد صعوبة.. متى يحضر الشيخ ؟

اخترقني صوت بالجوار: ممَ تشكين؟

السؤال يغمد خنجرا في أحشائي ويتغلغل ببطء حيث بركان الألم والأنين..

ماذا أشكو؟.. بل من ماذا لا أشكو؟ ماذا بقي في جسدي لا أشكو منه؟ قدماي المضعضعتان.. يداي المتخشبتتان.. ظهري وآلام لا توصف.. ذلك الورم الصغير في صدري.. عيناي.. عنقي.. كتفاي.. وأخيرا شعري المتساقط.. ما الذي بدأ أولا وبماذا انهيت؟ هل كان شعري الذي بدأت خطوطه واضحة جلية للعيان.. خصلاتي أصبحت تتسرب من بين اصابعي كأوراق فقدت رابطها.. على المشط خصلات وعلى الوسادة أخريات وفي ملابسي تجتمع العشرات..

سألني الطبيب وقد أذهله ما رأى: منذ متى؟

- لا اتذكر بالضبط.. بيد أن هناك تاريخا لا ينسى. هو يوم نجاحي في الثانوية العامة بتفوق.. واحتلالي للمركز الأول على مستوى المنطقة.. أعقبه بأيام لا أتذكر عددها تساقط شعري..

هل هي السعادة تعقبها تعاسة؟ صمت الطبيب وبقي سؤالي معلقا بلا

إجابة وأدوية لا حصر لها ترافقني حتى البيت"مينو كسديل" .. "نيزورال" للقشرة "لوسيون للشعر" و... و..

مرت أيام كثيرة قبل أن أتيقن بعدم جدوى تلك الأدوية.. شيء طبيعي أن اتجه بعد ذلك للأعشاب.. زيت الجرجير.. خلطة الزيوت السبعة.. زيت الحبة السوداء.. السدر.. الحناء!! أخيرا عرفت الحناء طريقها إلى شعري وقد رفضتها مرارا.. وأنفت حتى من وضعها على يدي مما كان موضع الخلافات مع أمي دائما.. لكنها أصبحت تملأ شعري وتسيل على عنقي ووجهي وتلطخ يدي وثيابي..

ألم التهكم والسخرية يلونان وجوه من حولي.. ولم تفتني تلك الضحكات المكتومة من أمي وأخوتي..

وشعري لا يفتأ يتساقط.. ومعه يتساقط آخر أمل لي في اعادته من جديد.. بدأ اليأس يتسرب إلى نفسي رويدا رويدا وأنا أرى تاج جمالي وقد استحال إلى أرض جرداء تتخللها بضع شعيرات..

حانت مني التفاتة إلى المرآة لأرى ذلك الشيء الذي استوطن صدري ولم أشعر به..

كتلة صغيرة تبرز للأعلى بدون أية آلام.. تراكمت الأحزان داخلي وأنا أرى دموع أمي.. فلم أجد حيالها سوى البكاء.. وما يجدي البكاء..!!

فحوص مخبرية.. تحاليل.. اشعات مختلفة.. اشعة اكس.. الأشعة فوق الصوتية (التراساوند) وغيرها الكثير.. ثم عملية عاجلة لاستئصال الورم.. بدون أن أدرك ماذا يحدث لي بالضبط.. وما هية هذا الورم..؟

سقطت البقية الباقية من شعري بدون أسف.. وارتديت الشعر المستعار لأول مرة في حياتي.. وأنا أشعر وكأنني أحمل صندوقا ثقيلا على رأسي.. والأحزان داخلي تزداد وتتعمق بغير نهاية..

- خرجت من المستشفى لا أكاد تحملني قدماي.. بصعوبة كنت أسير

وكأن قدمي مشدودة إلى الأرض بقوة لا تقاوم.. ثم سقطت طريحة الفراش لا يزورني الناس إلا لماما.. ولا أرى من غدر البشر سوى عيني أمي اليائستين ووجه أبي المتغضن ودموع اخوتي ولا شيء آخر..

ثم أفقت ذات يوم على يدي وقد غدت كتلة من الخشب بلا أي حراك.. وكأنها قد خلت من الدماء والأعصاب.. ثم تلتها يدي الأخرى وان لم تكن بنفس الشدة.. حمدت اللّه من أعماقي أن بقيت لي بعض القوة في يدي لأتمكن من القيام ببعض شئوني..

لم يجد العلاج الطبيعي ولا أي علاج آخر في عودة يدي أو حتى قدمي لوضعهما السابق..

غرقت في الدوامة من جديد وظهري يئن تحت وطأة الآلام ثم كتفاي.. الطامة الكبرى حينما تلونت عيناي باللون لأحمر القاني بدون سبب..

عجز الأطباء عن ايجاد دواء لي ولا حتى تشخيص لدائي الغريب.. تعددت الأقوال والإفادات والتقارير.. ولا شيء..

وقف الطب بعلمائه ومستشفياته وبأجهزته المتقدمة وكوادره الطبية المؤهلة قزما أمام حالتي لا يستطيع حيالها شيئا..

انتبهت على صوت رخيم يقرأ بإيمان "وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين" أشعر بالآية الكريمة تخترق أعماقي.. تزلزلني.. تتفتح الجراح على الصديد..

"وإذا مرضت فهو يشفين" الخدر يسري في أوصالي المرتجفة..

تذوب آلامي كأنها لم تكن..

النوم يداعب أجفاني بعد طول غياب..

أشعر بأنني أتلاشى.. وتغدو آلامي كأطياف من الأحلام..

«تمت»

أمي..
لا تسأليني عن السبب

أمي.. لا تسأليني عن السبب

اخترقتني أمي بعينيها قبل أن تسألني:

- عفاف ألن تعودي لفهد.. ألا تحبينه؟

امتلأت نفسي بالشهقات الباكية وعواصف عاتية تقتلعني من الداخل.. فهد.. حبيب الماضي والحاضر.. من أحببته أكثر من نفسي وازداد حبي له أكثر فأكثر بعد زواجي منه.. تزوجنا صغارا وكنا لا نزال طلابا في الجامعة.. لكنني تركت الدراسة منذ حملت وأتم فهد دراسته الجامعية ليغدو مهندساً مرموقاً.. اكتملت سعادتنا بطفلتنا الجميلة التي توجت رباط حبنا.. وفي حملي التالي جاءني فهد ليزف لي بشرى بأن الوزارة قد رشحته للانتداب لفترة بسيطة، وسيعود عليه هذا الانتداب بمال وفير بخلاف العائد المعنوي له..

فرحت لفرحته رغم حزني الداخلي لفراقي عنه.. همس بأذني قبل رحيله..

- أرجو ألا تلدي قبل عودتي.. أريده صبياً حلوا مثلك.. مرت الأيام سريعاً ليعود لي وقد انجبت طفلة أخرى.. لمحت الحزن في عينيه.. والوجوم بادياً في ملامحه، قلت له باستسلام:

- هذه مشيئة اللّه ولا اعتراض لنا على مشيئته، ثم ان البنات أفضل من الأولاد.. هز رأسه موافقاً كلامي.. انتظرت كثيراً ليذوب حزنه وتعود لعينيه تلك النظرة العاشقة وتعود لروحه فرحته وانطلاقته الآسرة.. لكن العينين بقيتا على جمودهما والحزن لا يبارح ذلك الوجه الوسيم والروح ميتة مطفأة وكأنها تشيع عزيزاً قد فارق الحياة.. صارحت أمي ولأول مرة منذ زواجنا بما طرأ على زوجي من تغيير بعد انجابي الطفلة الثانية حتى علاقتنا الزوجية لم تعد كسابق عهدها..

نصحتني أمي بالحمل مجدداً، فربما يأتي الولد ويأتي معه الفرح

الغائب وبهجة الأيام الحلوة التي مضت بغير إياب..

وفعلاً لم تمض أشهر حتى بدأت رحلة الحمل من جديد.. استقبل زوجي الخبر ببرود عجيب.. لم يفرح ولم يتبرم.. ارجعت هذا الأمر لخشيته من ان يكون الجنين القادم بنتاً ثالثة.. دعوت ربي كثيراً وأنا أبكي بأن يرزقني اللّه بالولد الذي تقر به عينا زوجي.. صليت كثيراً.. وبكيت كثيراً.. ودعوت كثيراً وكثيراً وشاء الله أن أنجب بنتاً ثالثة لحكمة أجهلها وارادها اللّه عز وجل..

في اليوم الثالث من الولادة انتابني شعور غريب بأنني لا أريد أن أعيش، وأنني أكره كل شيء حتى زوجي وبناتي.. انزويت داخل نفسي منكفئة على ذاتي راغبة عن الدنيا بأسرها.. كان زوجي في عالم آخر.. أمي حاولت المستحيل لانتشالي من الحالة التي ترديت إليها.. ومع الأطباء.. والأقراص المهدئة.. عدت إلى واقعي رويداً رويداً..

بناتي في حاجة لي.. زوجي كما كان لم يتغير منذ سنوات مضت لم يزداد حزنا وتعاسة كما توقعت وخشيت.. لم ينتحر ولم يرض.. هو بحزنه وبدموعه اليائسة..

هنا ادركت لتوي الحقيقة التي غابت عني طويلاً.. ان زوجي لم يكن حزينا من اجل انجاب البنات.. انه حزن آخر.. حزن مخيف تعرفه كل زوجة مخدوعة مرت بظروفي.. أدركت فجأة بأن حزنه وتغيره المفاجيء كان بعد عودته مباشرة من تلك البعثة إلى تلك المدينة..

واجهته.. صارحته.. ضيقت عليه الخناق.. أفهمته بأنني اعرف كل شيء وأفضل ان يكون هو الباديء بالاعتراف.. ويا لعذابي لقد اعترف.. على مدى ساعتين تحملت خلالها ما لايطيقه بشر مدة اعترافه.. تقلبت على فراش من الأشواك دون ان اجرؤ على نطق الآه.. قال لي انه تعرف عليها في تلك المدينة.. امرأة مطلقة ولا يدري كيف تسللت إلى أعماقه

وتربعت على عرش قلبه.. لقد مضى كالمنوم وتزوجها.. وعاشا بسعادة طوال مدة وجوده هناك.. ثم عاد على أمل مصارحتي ثم العودة لها لنعيش معاً في نفس المدينة.. لكن القدر كان أسرع.. فأبلغه أهلها بأنها قد ماتت اثر عملية جراحية بسيطة.. هكذا دخلت المستشفى لتجرى لها جراحة بسيطة وبسبب خطأ طبي لم تخرج منه مرة أخرى إلى حيز الوجود.. فقدها وأنا مازلت في فترة النقاهة في المستشفى وصاحبه الألم حتى اليوم.. لم ينس ابداً لحظات السعادة القصيرة التي عاشها إلى جوارها.. الحب المشتعل اللافح.. حرارة المشاعر والأحاسيس.. كلمات.. نظرات.. ابتسامات كلها عاشت في وجدانه وان ماتت صاحبتها.. حكى لي والدموع في عينيه بأنه يتمنى لو انها لم تمت وعاشت العمر كله إلى جواره.. طفح الأسى في نفسي فنهضت واقفة..

سألني إلى أين؟.. قلت له وأنا ابكي..

- لقد نسيت أنني زوجتك وحبيتك قبل ذلك.. ومضيت تحكي لي قصة حبك وكأنك تحكيها لصديق.. آسفة فلست اتحمل كل هذا.. لحق بي.. خاطبني قائلاً:

انت صديقتي قبل أن تكوني زوجتي.. وان مجرد كلامي معك قد أزال كثيراً من احزاني القديمة وحررني منها..

الآن استطيع ان اقول لكِ بصدق بأنني احبك..

دفعته برفق وانا اطلب مهلة للتفكير والتكفير، وكان قراري الذي لا رجعة فيه.. فالذي يخون مرة سيخون مرات ومرات، فلا سيطرة له على مشاعره.. وزهراتي الثلاث لن يضعن.. لكنني لن اعود إليه.. نظرت في عيني أمي مباشرة وكأنني لا اخشى الاجابة.. قلت بثبات احسد عليه..

كنت احبه لكنني اليوم احب نفسي وحريتي وهدوء اعصابي أكثر منه..

أمي لا تسأليني عن السبب؟

«تمت»

..وبكيت حبي المستحيل

..ويكيت حبي المستحيل

مطلقة كنت - والكل يعلم ما معنى كلمة "مطلقة"، في عرف الجميع مطلقة يعني النبذ والاحتقار والتجاهل.. "مطلقة" يعني بصمات لا ترى لرجل دمرني وذهب.. "مطلقة" تعني طريدة للبعض ومجرمة طليقة للبعض الآخر، الأول يحاول اقتناص ما يمكن اقتناصه والآخر يضع السدود والحدود والعراقيل كيلا اخرج عن الخط المسموح به.. والمسموح به قليل والممنوعات كثيرة.

اعترف بأن طلاقي حدث دون ذنب جنيته أو جريرة ارتكبتها، فقد فوجئت كما فوجئ أهلي ومجتمعي بشخصية الرجل الذي تزوجته.. حيوان متوحش يرتدي ثياب الإنسانية لتسقط عنه في لحظات ويتبدى الوحش بجنونه وعربدته وقسوته.. ضرب وتحطيم.. اهانات متواصلة.. حتى افتديت نفسي منه بالطلاق.. اعدت له كامل المبلغ الذي دفعه لشرائي، فاشتريت نفسي.. أيدني أبي وأمي والعائلة بأسرها.. لم يعارض.. طلقني على الفور وسلب نقودي وذهبي.. هل كنت أتمنى أن يرفض طلاقي ويتشبث بي حتى النهاية؟ هل كنت احلم بأن هناك بصيصاً من حب يختبئ داخل جدران قلبه دون أن يدري؟ هل كنت اتوقع واحلم وأتمنى أن يدوس بنقودي تحت قدميه معلناً ومقسماً وباكيا انها لا تساوي شيئاً بدوني؟

لا أدري.. ولم أدر سوى انه غادرني اشلاء امرأة.. شبح يمشي ويرى وينام.. خواء مريع يعوي داخلي ويعلن في كل لحظة بأنني لا اساوي سوى حفنة نقود.. دمار شامل يفتت روحي فلا يتبقى سوى الهيكل الخارجي.. اجتمعت الأسرة ليتباحثوا بشأني.. واخيراً قرروا ان التحق بأخي عبدالعزيز الذي يدرس في لندن، لعل تغيير الأجواء من حولي تساعدني على النسيان.. لكنني لم أنس فقد حملت جرحي داخلي وأحزاني

تأبطتها في حقيبة ملابسي، لتذكرني كل لحظة بأنني مطلقة بدون ذنب أو جريرة.. حاول أخي أن يخفف عني.. نصحني بارتياد احدى المكتبات العامة القريبة من سكننا.. ذهبت وليتني لم أذهب.. فقد تعرفت على "سميح" شاب عربي يعمل في المكتبة، لاحظ حزني ووحدتي وترددي اليومي على المكتبة.. اقترب وسأل وتعاطف.. كنت في أسوأ حال قلبا وقالبا.. كنت ضعيفة يائسة مجروحة، أعاد لي ثقتي بنفسي.. بجمالي.. بكينونتي.. تغنى بأحلامي وعزف على نغم حريتي المنشودة فانهارت كل قلاعي المشيدة ودكت حصون مقاومتي حتى تساوت برمالها.. اين أنا وماذا يحدث لي؟ وفي أي عالم أعيش؟ نسيت كل شيء وابتعلتني دوامة مخيفة لأفيق على نفسي وأنا غارقة في حب سميح وقد اتفقنا على الزواج رغم اختلاف الأديان والجنسيات والمذاهب.. لم يلحظ أخي شيئاً ولم أحاول بدوري أن ابوح له بشيء لكنني في لحظة طفت فيها المشاعر قررت أن ابوح لأمي عبر الهاتف بحبي ورغبتي بالزواج بمن احب.. لم أتوقع أن يكون رد فعل أمي بهذا العنف.. نعتتني بالجنون ثم اغلقت السماعة ورغم بعد المسافات، فقد احسست بأنها تبصق على وجهي.. وفي الغد فوجئت بأبي يقتحم علي حجرتي غاضباً ومن خلفه أخي عبدالعزيز يهدر بجنون.. شلتني الصدمة، فلم أدر إلا وأنا في وطني.. بين جدران بيتنا الحميم وقضبان طلاقي الذي نسيته أو تناسيته..

وعدت مطلقة من جديد بدون وهم حب عرفته كما لم يعرفني.. كل شيء ممنوع ولا شيء مباح..

أمي تعاتبني على أشياء كثيرة لا أفهمها.. وأنا أبكي حبي المستحيل.

«تمت»

صدر للمؤلفة

١ - خطأ في حياتي	(مجموعة قصصية)	الطبعة الخامسة	١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م
٢ - الزوجة العذراء	(مجموعة قصصية)	الطبعة الخامسة	١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م
٣ - دموع في ليلة الزفاف	(مجموعة قصصية)	الطبعة السادسة	١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م
٤ - عيون على السماء	(رواية)	الطبعة الخامسة	١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م
٥ - أنثى العنكبوت	(رواية)	الطبعة الخامسة	١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م
٦ - بكاء تحت المطر	(روايتان)	الطبعة الخامسة	١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م
٧ - الرجل الحائط	(مجموعة قصصية)	الطبعة الثانية	١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م
٨ - عيون قذره	(رواية)	الطبعة الثانية	١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م

عنوان المؤلفة

ص.ب ٩١٣ - مطار الظهران

الرمز البريدي ٣١٩٣٢ - المملكة العربية السعودية

بريد إلكتروني :Komasha@yahoo.com

إسم الصفحة	رقم الصفحة

١ - أغنية الصباح ٥

٢ - كفى يا ضميري ١١

٣ - وأضاعني أخي ١٩

٤ - الموت الجديد ٢٧

٥ - جسد بلا أنوثة.. ..... ٣٣

٦ - جمال لا يراه الناس ٤١

٧ - .. وسقطت في الهاوية ٤٩

٨ - إمرأة في بيتي ٥٧

٩ - أبداً.. لا يغدو المنفى وطناً ٦٥

١٠ - الرجل الحائط ٧١

١١ - إمرأة في سيارة أبي ٧٩

١٢ - « الضحية » ٨٧

١٣ - « السراب » ٩٣

١٤ - لقاء لا ينسى ٩٧

١٥ - سأبكي غدا ١٠٧

١٦ - هاربة من الماضي ١١٣

١٧ - حلم مجنون ١٢١

١٨ - لن يعيش لك طفل ١٢٩

١٩ - أطياف من الأحلام ١٣٧

٢٠ - أمي .. لا تسأليني عن السبب ١٤٣

٢١ - .. وبكيت حبي المستحيل ١٤٩